

العاشق

تأليف: مرجريت دوراس

ترجمة وتقييم: محمود قاسم



الرواية العالمية (٢٠)

العكاشق

تأليف

مرجريت دوراس

ترجمة وتقديم

محمود قاسم



المهنية للمبشرة المتابعة للكتاب

١٩٩٠

هذه هي الترجمة الكاملة لرواية « العاشق »

لمارجريت دوراس *

L'AMANT, de MARGUERITE DURAS
EDITIONS DE MINUIT 1984.

مارجريت دوراس .. وموجة الرواية الجديدة !

بقلم : محمود قاسم

● اجتمعت ثلاثة عوامل هامة في رواية « العاشق » لمرجريت دوراس بحيث لا يمكن تجاهلها عند الحديث عنها أو تقديمها الى القارئ العربى .. هذه العوامل تتمثل فى أنها رواية تنتمى كاتبها الى « الرواية الجديدة » التى أثارت نقاشا طويلا حول ماهيتها وأهميتها وجدواها ومصيرها فى الثلاثين عاما الماضية . أما العامل الثانى فهو أنها فازت بجائزة جونكور الأدبية عام ١٩٨٤ .. وثالثا لأن كاتبها هى مارجريت دوراس وهى كاتبة متنوعة الأنشطة والعطاء وتعتبر من ركائز الابداع الأدبى والسينمائى والمسرحى فى النصف الثانى من القرن العشرين ..

وقبل أن نتحدث عن هذه الرواية .. أو نقدمها الى القارئ العربى يهمنا أن نتناول العوامل الثلاثة التى وراء هذه الرواية ..

فى عام ١٩٨١ وبمناسبة حديث أجرى مع الكاتب المسرحى يوجين أونسكو حول مسرح العبث قال ان الذين هاجموا هذا المسرح فى أوائل الخمسينات وقذفوا أونسكو بالبيض قد رشحوه بعد ثلاثين عاما ليكون عضوا فى الأكاديمية الفرنسية .. أى أن هذا المسرح ، بدخوله باب الأكاديمية ، قد أصبح كلاسيكيا . نفس الشئ حدث فى عام ١٩٨٤ حين نال كلود سسيمون جائزة نوبل فى الأدب .. ولأن أكاديمية ستوكهولم تمنح جائزتها للأدب الكلاسيكى غالبا .

فقد كان اعلان فوز سيمون بالجائزة دليلا أكيدا على أنها أصبحت حالات كلاسيكية . . وقد جاءت الرواية الجديدة كظاهرة أدبية فريدة تستحق الاحترام والوقوف عندها ، فهي لم تأت من فراغ . ولم تكن محاولات تجريب عبثية ، كما تصور البعض ، مثلما حدث في بعض حركات الفن التشكيلي . وانما هي مدرسة لها كتابها المبدعون ، ومنظرون ، ونقاد . . وكان أغلب أبناء هذه المدرسة هم كتابها ومبدعوها . . وهم الذين راحوا يؤصلون اتجاهاتها وعطاءها . . وفيما بعد سعى هؤلاء الى تقديمها لجمهور السينما ، والمسرح ، بأنفسهم فأخرجوا رواياتهم مباشرة دون الاستعانة بأي مخرجين من أي مدرسة . .

وأعتقد أن هناك مداخل عديدة للرواية الجديدة من أجل فهمها . منها كتاب « نحو رواية جديدة » الذي كتبه الآن روب جرييه . ومنها كتاب « حوار في الرواية الجديدة » المنشور في بغداد عام ١٩٨٨ من ترجمة د . نزار صبرى . ومنها بالطبع الحوار الذي أجريناه مع روب جرييه في بغداد في نوفمبر ١٩٨٨ أثناء عقد مهرجان المربد الشعري التاسع . ففي هذا الحديث راح الكاتب يقدم هذه الرواية الجديدة بشكل علمي مفصل . حيث قال : « منذ بداية القرن التاسع عشر تغير شكل العالم الغربي . أو العالم بصورة عامة . لننظر مثلا الى مفهوم العلم . فليس للعلم الآن أى علاقة بالعلم الذى عرف فى عصر اونوريه دى بلزاك . فقد كان بلزاك يتصور أن العلم هو الشئ الحقيقى . أما العلماء المحدثون فلا يتصورون الآن أن العلم شئ حقيقى . فالتمارين الذهنية الرياضية التى تسمح بالذهاب الى القمر ليست حقيقية . انها متخيلة . اذن مفهوم العلم لم يعد نفس المفهوم ، وأيضا تغير مفهوم علم النفس كليا . وهكذا فان علم النفس تغير عما كان عليه فى مطلع القرن العشرين . ولذلك نجد أن علاقة الانسان بالعالم قد تغيرت . ولكن النقد الغربى مايزال يريد أن يحافظ على موقع الرواية منذ مائة وخمسين عاما . ولهذا السبب

كانت الرواية الجديدة هي الشيء الوحيد الذي ينتقدونه من خلال سؤال مثل : لماذا لا نكتب مثل بلزاك ؟ .

« لقد تغيرت فرنسا كبلد من البلدان ، غير أن النقد الأدبي مازال مرتبطا بالقرن التاسع عشر . انه نقد محافظ .

« ربما لأننى لم يكن تكوينى أدبيا . بل كان علميا . » كمهندس بايولوجى « وبالنسبة لى فقد أدركت كرجل علمى أن العلم شيء مخترع . والعلم يعنى بالنسبة لى التقدم الى آفاق أبعد . ففى العلوم لا نعود الى المصادر الماضية بقدر ما نفكر فى المستقبل وعندما بدأت بكتابة الرواية اتبعت هذه القاعدة العلمية .

« أى أننى أنظر دائما الى ما هو أمامى . ولهذا السبب ، سلكت سلوك الكاتب العلمى وأدركت أن كل كاتب ينبغى أن يبدع شيئا جديدا . ولذلك كان القانون السائد يسقط على رأسى كالسيف وكانوا يقولون لى : « الرواية لا تكتب هكذا » .

« أعتقد أن الحداثة تتجسد هنا ، فالحداثة بالنسبة لى خلق شيء مستقبلى دائما . وفى هذا الابداع الحداثى توجد نقاط عديدة . وأول نقطة يوجد الفراغ . وأريد أن أشرح الفكرة بشكل أفضل . فمئة مائة وخمسين عاما مضت كانت شخصية الانسان فى علم النفس كاملة . وعلى سبيل المثال كان الرجل البخيل - جوريو - عند بلزاك بخيلا بصفات محددة . لديه وجه يشير الى البخل ومفرداته تدل على أنه بخيل . وحتى اذا كان عنده شاربان فانهما شاربا بخيل . وسترته سترة بخيل . وأى فعل من أفعاله هو عبارة عن فعل للرجل البخيل . اذن ، فى هذه الحالة ليس هناك ثمة فراغ فى الشخصية ، فكل شيء ملىء ومنسجم ومحدد . ولكن فى العالم الحقيقى هذه الشخصية ليست موجودة . وبالنسبة لعلم النفس فانه كان دائما يبحث عن هذا النوع فى الانسان . وهنا كل شيء انقلب . فلماذا يقوم البخيل بفعل . يفند فكرة البخل فتتغير كل الموازين . . ؟

ويقول جرييه أيضا - انظر الحديث المنشور معه في جريدة القادسية العراقية في ٢٦ نوفمبر ١٩٨٨ - ان : « مسألة الفراغ مفهوم في العلوم . فمنذ أينشتاين انقلبت المفاهيم العلمية وأصبحت النظرية العلمية الصارمة الآن هي النظرية الناقصة التي يكون فيها نقص ، وليست النظرية التي تكون كاملة وقاطعة منذ مائة وخمسين عاما .

« الشيء الوحيد الذي ينسجم مع نفسه ومتكامل هو الموت .
واذا كان العلم حيويا دائما يكون هناك فراغ . ففي كل الميادين :
في الفلسفة وعلم النفس ، وكل الأنشطة الأساسية حدث ذات الشيء . وفي كل هذه الميادين . وكل هذه النظريات ظهرت مسألة البحث عن فراغ دائم . ويصح هذا القول على الروائي . وإن أول زوائية في الحداثة هي « المسوسون » لدوستويفسكي . وهي كتاب رائع لأن الشخصية الرئيسية في الرواية ، سترافوجين ، شخصية غائبة وغير مفهومة . انه قائد لمجموعة ثورية لكنه شخصية غائبة . لا أحد يعرف ماذا تفعل هذه الشخصية . ولا يفهم القراء ذلك . والشرطة لا تفهم ذلك . وحتى أعضاء المنظمة الثورية لا يفعلون ذلك . وهذا الغياب يعطي قوة كبيرة للشخصية حضورا وتجسيدا ولهذا السبب أصبحت شخصيات هذه الرواية تثير الاشكاليات . ان هذه الشخصيات الغائبة نفسها تتكرر في معظم روايات القرن العشرين فتراها في روايات ويليام فوكنر وفرانتز كافكا وجيمس جويس . فدائما هناك فراغ في الرواية . وهو شخصية ملتبسة غير مفهومة . والآن نرى دائما الرواية وهي تطرح تساؤلات حول نفسها . من خلال هذا كله أحاول أن أعطي اجابة لسؤال الحداثة لأقربها للقراء بشكل حياتي .

« لقد كان الكاتب الكلاسيكي آنذاك كاتباً مبدعاً يفهم كل حقائق العالم تتركز مهمته ووظيفته في أن يجلس الى مائدة الكتابة

ليكتب عن حقيقة يعرفها جيدا . ويشرحها للقراء . لكن الكاتب الحديث هو رجل يجلس الى مائدة الكتابة لأنه لا يفهم العالم .

ويرى جرييه « أن الرواية الجديدة كاللوحة التي يصنعها الرسام من خلال اللون . فالروائي يصنع الرواية بالكلمات . في اللوحة خطوط وألوان ، وعندما تتحول الى كلمات مثل الموسيقى التي تصنع النوتات . انها نفس الشيء . لكن المواد الأولية هي التي تختلف . واللغة مادة مختلفة تماما عن المواد الأخرى . لأنها تستخدم في عملية التواصل ..

ويرى نزار صبرى ان مسار الرواية الجديدة يتحدد فيما أرادت من الأشكال الجديدة التي تقوم على اللغة التي تقيم بشكل ذاتي عدة علاقات بين العناصر التي يمكن أن تكون متباعدة في الزمن والمكان . وتكشف الرواية الجديدة عن هذه اللغة التي تتحدث فينا من خلال الاستعارة التي تقيم شبكة من العلاقات .

وتعالج الرواية الجديدة في مجملها عدة موضوعات من بينها مشاكل الالتزام والتأثير والتقنيات الروائية . والعلاقة بين التنظير والابداع . ومثلما جاء في كتاب نحو رواية جديدة الذي ترجمه مصطفى ابراهيم أن أهم سمات الرواية الجديدة انها رفضت فكرة الشخصية والحكاية والالتزام . وان التفسيرات ستكون غائبة ومفترضة في مواجهة حضور البطل . وان على اللغة الأدبية ان تتغير . وانه ليس هناك أى عمل من الأعمال الأدبية المعاصرة يتفق والقواعد النقدية الثابتة . وانه يلزم لتفهم وتناول الرواية الجديدة ناقد له مفرداته اللغوية الخاصة التي تتناسب ولغة ومفاهيم هذا اللون من الرواية . كما ان الرواية الجديدة فقدت اليوم سندها الأكبر وهو البطل .. والحدوتة .

وفي الرواية الجديدة نرى الأشياء ليست على شيء من التنظيم الذي تشاهده في الواقع الذي هو مليء دوماً بالفجوات والانقطاع .

وهو لا يمكن ان نحدد به شيكلاً متكاملًا . بل هناك مجموعة من
الجزئيات المتناثرة . . . التي يمكن جمعها في اطار عام .

وأثناء لقاء بغداد مع جرييه كشف مدى الحب الذي يكنه أبناء
هذه الرواية لبعضهم . ومدى تماسكهم معا . وقد وجدت الرواية
أبناءها المخلصين مثل آلان روب جرييه وميشيل بيتوز وكلود
سيمون وناتالي ساروت . وهناك سمات عامة في كتابات هؤلاء
الآباء منها :

● في الوقت الذي تتسم فيه الروايات المعاصرة بضخامة
الحجم . فان الروايات الجديدة تتسم بصغر حجمها ، مثل رواية
« العاشق » ، وذلك على غير عادة ما اعتاد القارئ قراءته من
روايات . وأكثر هذه الروايات لها ناشر مؤمن بأهميتها مثل دار نشر
« مينوى » الفرنسية .

● ينكر الكثيرون من الروائيين الجدد أن لهم مدرسة . بل
هناك حركات أدبية . وفي هذه الحركات هناك نوع من الشعور
بالمشاكل الحياتية المطروحة في العالم . لكن ذلك يتم من خلال
اعطاء أهمية ثانوية للغة - هذه اللغة - التي تفقد معانيها دائما .
وتصبح شيئاً غير واضح . فتصبح مجردة .

● يرى كتاب الرواية الجديدة أن النقد الذي يتطرق الى
الرواية الجديدة يتفاوت في أهميته ويقول بوتور ان النقاد لا يهتمون
سوى ببعض ملامح هذا العمل . فهو مثل بذرة تنبت تدريجيا وتزهر
أزهارا في عقول الناس . . . بينما يرى جرييه ان النقد مهم ، حتى
وان كان سلبيا « اذ انه يكشف النقاب عن أساطير ثقافية لا يرغب
في تقبلها ولكنها في الحقيقة . ذات تأثير سلطوى واجتماعى » .

● يقول جان ريكاردو فى العدد رقم ٢٤٢٧ من مجلة لوفيل لىترير ان الرواية الجديدة تستقبل دائما عملاء جددا ، ويمكن أن نقول ان الفكرة التى جاءت بالرواية الجديدة هى فكرة ثقيلة لها العديد من القراء ، ويكفى ان نذكر ما كتبه الصحف منذ أكثر من اثني عشر عاما . حيث قالت ان الأمر يتعلق بموضحة ستختفى مثلما اندثرت أشياء كثيرة . ومن الأفضل ان تنكسر . . . ويقول الكاتب ان الصحف التى راحت تتحدث عن هذا قد اختفت . وبقت الرواية الجديدة . « لا أقول هذا لأنهم أعلنوا عن موت الرواية الجديدة . ولكنهم لأنهم هم قد ماتوا . ويكفى أن سجلات الوفيات قد تضم أحيانا أسماء لم يدفن أصحابها بعد . اليوم الأمور تستمر » .

ومن أجل تأصيل حركتهم الأدبية . أنشأ الروائيون الجدد فى فرنسا جائزة أدبية تمنح للأدب التجريبي القريب فى شكله من الرواية الجديدة . . . وهى جائزة مديسيس . وفى السنوات الأخيرة تخصص فرع من هذه الجائزة للأدب الأجنبى المترجم الى اللغة الفرنسية . وفى السنوات الأخيرة منحت لكتاب تقليديين حاولوا التجريب فى بعض رواياتهم مثل مارت روبير وكلود ديوران وكريستيان روشفور . . فضلا عن أبناء الرواية الجديدة وعلى رأسهم من الجيل الجديد جورج بيريك . .

يعنى هذا ان الجوائز الأدبية الأخرى لا تمنح للروايات الجديدة . أو الرواية التجريبية . مثل جائزة فيمينيا و انتراليه ، وجائزة الأكاديمية الفرنسية . وبالطبع جائزة جونكور . . وهى أكثر الجوائز الفرنسية كلاسيكية كما أنها أكثر الجوائز أهمية فى الأدب العالمى بعد جائزة نوبل فى السويد . . وقد منحت على مدى تسعين عاما لأهم كتاب الرواية الفرنسية على الإطلاق مثل رومان جارى ، واندريه مالرو وهنرى ترويا . والطاهر بن جلون وميشيل تورييه

ويأتريك موديانو . . كما منحت للعديد من الكتاب المغمورين عن روايات جيدة كتبوها . فهي تمنح للروايات الجيدة أكثر منها للأدباء . حيث يتم تصفية الروايات المنشورة خلال العام الذي تمنح فيه الجائزة الى ست روايات يتم الاقتراع عليها من قبل أعضاء أكاديمية جونكور . . والجائزة تمنح اذن للرواية وليس للكاتب . . فكم من روايات هامة راح كتابها فيما بعد ، في طي النسيان . . وكم من كتاب كبار لم ينالوا قط شرف الفوز بهذه الجائزة . . وهي تمنح للكاتب مرة واحدة فقط في حياته . .

وقد أسس أكاديمية جونكور اثنان من الأدباء هما الاخوان ادمون وجول جونكور في أواخر القرن الماضي . وقد كانا صحفيين يكتبان الرواية . ولهما دراسات في تاريخ الفن ونظريات الطبيعة . أسسبا معا جريدة . « جورنال » وكتبا فيها . ومن أهم رواياتهما : « الفتاة اليزا » . و « فوستين » ثم « جرمين لاسرتو » و « سليمان » . وقد مات ادمون عام ١٨٧٠ وأوصى ، مثلما فعل ألفريد نوبل فيما بعد ، ان تخصص ثروته لتشجيع الابداع الفني ومن حيثيات منح الجائزة ان تمنح « للتعبير الصادق عن معاناة الانسان المعاصر ازاء قضايا الانسانية . وان تبتعد هذه الأعمال عن الصراعات السياسية والطائفية داخل فرنسا والعالم » .

ومنحت أول جائزة جونكور عام ١٩٠٣ لكاتب راح طي النسيان يدعى جون انطون عن روايته « قوة العلو » وقد منحت الأكاديمية جائزتها للعديد من الشباب . . ويتكون مجلس ادارتها من عشرة أعضاء يعتبرون من الأدباء المميزين في فرنسا مثال هيرفيه بازان (الرئيس) وميشيل تورنييه وفرانسوا نورسييه وارمان لانوا ، وفرانسواز مالىه جوريس .

وفي الثمانينات منحت الجائزة لكتاب تتراوح أعمارهم بين الأربعين والخمسين الا في حالتين هما لوسيان بودار عام ١٩٨١

ومرجريت دوراس عام ١٩٨٤ . أما بقية الأدباء الذين حصلوا عليها فهم أقل شهرة ، فى أغلبهم ، ولم تواتهم أى شهرة سواء بعد الجائزة أو قبلها سوى الطاهر بن جلون . أما بقية الأسماء فلم يلتفت اليهم أحد بعد فوزهم بالجائزة مثل ايف نافار وميشيل هوست واريك أورسنا ودومنيك فرنانديز .

ولأن رواية « العاشق » بمثابة تجربة خاصة باللغة الذاتية عاشتها الكاتبة فلا يمكن فصل الحديث عن هذه الرواية عن سيرتها الذاتية . فأسرتها هى إحدى الأسر التى رحلت الى الهند الصينية ابان الاحتلال الفرنسى لفيتنام . عاشت الأسرة بأكملها هناك : الأم والأب . والابوة . وقد وصفت مرجريت أحوال أسرتها وصفا دقيقا فى هذه الرواية ، فهى أسرة فقيرة فى وسط استعماري مليء بالأجواء الخائفة . . . وإذا كان هناك تميز ، كما ترى الكاتبة ، بين الجنس الأبيض والجنس الأصفر . فإن أسرة الكاتبة كانت تعيش فى قاع المجتمع . فالأم لا تجد أموالا من أجل شراء ملابس لأولادها . وهى تعمل مديرة لحدى المدارس . وقد ولدت مرجريت عام ١٩١٤ فى سايجون . والجدير بالذكر انه فيما قبل نشر روايتها « العاشق » فإن سيرتها الذاتية كانت معتمدة وعليها هالة سوداء . ومن هذه الرواية نعرف أن أسرتها الصغيرة قد عاشت فى سايجون فترة طويلة قبل ان ترحل الى فرنسا . وقد غادرت مرجريت فيتنام عام ١٩٤٢ الى باريس وهى فى الثامنة عشرة . . . وقد خصصت عن هذه الفترة غالبية أجزاء الرواية . وفى باريس كانت تحمل مسودة روايتها الأولى « المتعجلون » التى نشرتها فى عام ١٩٤٣ . ورغم ان الرواية الجديدة لم تكن قد اتضحت معالمها بعد فى هذه الرواية . بدأت بشكل واضح من خلال كلود سيمون عام ١٩٤٥ - الا ان التجارب الأولى للكاتبة قد أشارت الى انها سوف تقدم ، فيما بعد ، شيئا مختلفا .

في باريس درست الكاتبة القانون والعلوم السياسية واستمرت في نشر رواياتها . . . وإذا كانت مرجريت دوراس قد نشرت روايتها الأولى عام ١٩٤٣ . فإن أولى مسرحياتها قد نشرت في عام ١٩٥٩ . أما أول فيلم أجرته فقد ظهر عام ١٩٦٦ تحت عنوان « الموسيقى » . ومن الصعب رصد عالم مرجريت دوراس في مقال واحد . ولذا سنحاول التعرف على عالم الكاتبة من خلال النفاذ الى نقاط محددة في هذا العالم الرقيق ، فأدب الكاتبة يدور حول قطبين دون ان يتناقضا . وبدا هذا واضحا في رواياتها خاصة الأولى منها . وفي « خزان فوق المحيط الهندي » تتحدث عن أمها دون الإشارة اليها صراحة ، مثلما فعلت في العاشق ، المدرسة التي تخطى بها الزمن . وهي امرأة تتسم بالبساطة والبساطة ، وتواجه الظروف الصعبة التي تحيطها . . وهي محصورة بين طموح أولادها الذين يريدون العودة الى فرنسا . وبين أصدقائها الذين يدورون مثل بقرة الساقية بلا هدف محدد .

وفي رواية « مدام دودين » نجد أنفسنا أمام شخصين . لا نعرف أسميهما . . يلتقيان لأول مرة . هي خادمة تعمل في فندق . وهو بائع جوال يعمل في شوارع المدينة يكافح كل منهما كي يعيش حياته . هي امرأة في حاجة الى رجل . وهو رجل في أمس الحاجة الى امرأة . الى صدر حنون يركن اليه كلما شعر بالقلق . الاثنان يعانيان من عزلة . وأرق . وملل . انهما يمارسان حياتهما بأسلوب مشابه . يرددان نفس العبارات دائما . ولأن الكلام بين الرجل والمرأة . تختلف نبراته . فانهما يتعارفان . يبدأ كل منهما في الحديث عن نفسه . يتبادلان عبارات تافهة يقولها الناس دائما كلما سعى أحد للتعرف بآخر . يدور الحديث طويلا ، بلا معنى ، وربما هناك هدف . هو زيادة الاتصال . فنحن نعيش في عصر البشر فيه كثيرون ولكن الاتصال فيما بينهم ضعيف ، واه .

ويقترب كل منهما من الآخر بعد عدة لقاءات • يدور دائما كلام بينهما • لكن على الكلام ان يصبح نغمة واحدة • وعلى الايقاع ان يتوحد بينهما كي يقتربا أكثر • تقص عليه قصصا من حياتها • يفكر فيها • يحدثها انه يود الارتباط بها • ياله من ارتباط •

مثل هذه العلاقات هي هم الكاتبة في أدبها بصفة عامة • وإذا كانت قد أوجدت شكلا تقليديا لها في رواياتها الأولى • فانها فيما بعد تحدثت عن نفس العلاقات من خلال شكل تجريبي جديد • مثلما حولت رواية « خزان فوق المحيط الهادئ » الى « العاشق »

المجدير بالذكر ان الرواية الأولى التي بدأ فيها التجريب واضحا هي « خيول تاركينا الصغيرة » • وفي هذه الروايات اختفى الموضوع وانحسرت الشخصيات • وضائق الأماكن بشكل واضح • مثلما حدث في « هيروشيما حبي » حيث هناك امرأة فرنسية تحب رجلا يابانيا شهيد في طفولته ما حدث في مدينة هيروشيما من فظائع عقب القاء القنبلة الذرية •

ومن أشهر رواياتها في تلك الفترة « الساعة العاشرة والنصف من أمسية صيف » التي تتناول فيها علاقة مشابهة بين رجل وامرأتين • فهناك في تلك العاصفة الشديدة اكتشف زوج خيانة امرأته فأطلق عليها الرصاص ، وهرب • أثار هذا الحادث تلك القرية الأسبانية الصغيرة التي وقع بها أكثر مما أثارتها العاصفة التي عطلت حركة المرور • توقفت سيارة بول الذي ترافقه امرأته وابنتها اللتان تجلسان في الخلف • أما كلير ، صديقة ماريا الزوجة ، فكانت تجلس بجانب بول وفي الخفاء تضغط على يده • حتمت هذه الظروف ان يقضى الأربعة ليلتهم في فندق • حيث الناس يتحدثون عن جريمة القتل • وفي الساعة العاشرة والنصف ذهب بول الى كلير • ووقفت الزوجة ، من بعيد ، ترقبهما • وفي تلك

اللحظة سمعت صوتا أسفل الشرفة . انه رودريج القاتل . تناديه
وتخبره أنها سوف تساعد . تذهب به خارج القرية . تتركه في
كوخ صغير وتخبره أنها ستعود في الصباح .

وفي الصباح تحدث زوجها عما فعلته ليلة البارحة . يهرع
الأربعة الى الكوخ لكن رودريج يكون قد صرع نفسه . انه صورة
مشابهة من ماريا . قتلت الخيانة وأدمته وانسالت فوق روحه الدماء ،
وعندما تستكمل الأسرة رحلتها الى مدريد تخبر زوجها ان عليهما
ان يفترقا . لكن بول لا يوافق . . ويكتشف أثناء الحفل الذي
يحضرونه معا أن زوجته تضحك كما لم تفعل من قبل . وعقب الحفل
تطلب ماريا ان يلعبوا لعبة الاستغماية . وفي هدوء شديد تنسحب .
يبحث عنها زوجها . بلا جدوى .

وبدءا من المرحلة التجريبية بدأت الكاتبة في تجريد شخصياتها
من أسمائهم ، والأماكن التي يعيشون فيها . وهم أشخاص ليس
لديهم أى شئ بطول . أنهم يتبادلون الاشارات والكلام دون أن
يصلوا الى أهداف محددة . ولا يظهرون أفكارهم ولا مشاعرهم .
ويجهلون أو يخفون الأخطار التي تحيق بهم : الانفراد والاعياء
والجنون وادمان الخمر والجريمة . ولا يتم بينهم أى اتصال حقيقى
ولا أى حوار . يبدو كأنهم يلاحقون مناجاة متوازية . ويتكلمون ،
ليس للتعبير عن أنفسهم ، من أجل استكشاف حيوات سرية تصبح
ملموسة بفضل حالتهم ذات الوعي النصف . وذلك رغم تفاهة
كلماتهم الظاهرة .

والنساء في هذه الأعمال التي ظهرت في تلك السنوات يعشن
في عالم من اللامبالاة . ويعين عزلتهن ويقسن اتساع عالمهن الرتيب
البارد ، انهن دون هوية ، وتجربتهن هي الوصول الى هوية . مهما

كان الثمن . وهن يضعن أنفسهن فى استيلاء كلما ينتظرن الإشارة بأن الشئ قد بدأ . . .

ولأنه لا يمكن أن نفصل إبداع مرجريت دوراس الروائي عن المسرحى والسينمائى . . فعلينا أن نتناول عطاءها السينمائى خاصة انها التى قامت بإخراج كل كلماتها التى أبلغتها . فكتبت السيناريوهات كى يخرجها آخرون فى بادئ الأمر . مثلما فعل الآن رينيه وجول داسان . . ومن قراءة القائمة الكاملة لأعمال الكاتبة سوف تراها قد حولت إحدى رواياتها الى فيلم . وفى فترة أخرى حولت فيلما من أفلامها الى رواية . . . أو الى مسرحية . . وهكذا تتحرك أضلاع هذا المثلث فى كل الاتجاهات بلا حدود أو ضابط . .

وفى هذه الأعمال تلعب المرأة الدور الرئيسى ، أما الرجل فهو مخلوق ثانوى هامشى . وقد أصبحت النساء بلا وجوه أو هوية أو ملامح . مجهولة المنبع ، غير معروفة المصير . لا تنسم بذكاء أو بسمات آدمية مميزة . تعيش وجودها لحظة بلحظتها . انها أقرب الى الحيوانات الشاردة فى الغابات . يريد الكل ان ينهش فى بشرتها الناعمة . . وعليها ان تعطى بلا حدود مثلما حدث فى فيلمها « أنشودة هندية » . وهنا نجد أنفسنا أمام امرأتين تسيران فى خط متواز . الأولى امرأة ثرية والأخرى تعاني من املاق شديد . الأولى محبوبة والثانية عاشقة . انهما صورتان لامرأة واحدة نقابلهما فى كل مكان . الأولى تعرف تماما وتعنى قضية الوجود . فتتهجر الرجل . والثانية لا تعرف ولكنها تعيش بأى ثمن . هناك الصراع والموت والكفاح من أجل الحياة ، والبقاء .

أما « الحافلة » فتدور أحداثها داخل مقصورة سيارة كبيرة لا يجلس فيها سوى السائق وامرأة داخل عالم مغلق . تتكلم المرأة

والرجل يسمع • وتتصاعد حدة الموقف بين الاثنين من خلال ما يقال وما يسمع وكأنهما في عالم سحري • شخصيات داخل شخصيات • أو فيلم في أعماق فيلم • ثم يدخل فيلم ثالث داخل الفيلم • المرأة هنا هي إحدى نساء مرجريت اللائي يجدن الحديث حول حكايات مثناة سمعتها من هنا وهناك • امرأة بلا هوية محددة • تتحدث حول أشياء مجهولة الهوية لا رابط بينهما • انها أقرب الى وساوس المجانين • تشعر نحو السائق بحب هو أيضا مجنون • تكلم عن السياسة والعنصرية والثروة • يقود وهو يتلذذ بسماع صوتها • لكن السائق يتنبه الى أنه ليست هناك امرأة في السيارة • انها صوت يهفو اليه من الخارج • لعل صاحبتة جالسة بجانبه • ولعلها قادمة اليه من المستقبل • أو لعلها تصعد من حفرة الماضي البعيد • انها تمثل صوت الكاتبة • كأنها تحاول بدورها ، ان تسرى عن السائق ، في رحلته الطويلة المعزولة • وتحدثه عن أشياء عديدة • بعضها لا يعرفها • وأشياء أخرى أيضا • لا يعرفها !! •

وتبدو مرجريت شغوفة بمثل هذا العالم الرائع الذي يخصها وحدها • ليست فيه حدودة بأى معنى • ولكنه مجموعة من الصور المتلاحقة حول أشياء غير مترابطة • المكان ثابت لكنه لا يصبح مكانًا بالثورة ، والزمن من والشخصيات التي يتصورها المرء موجودة اذ بها تتلاشى كأطياف تنسحب من فوق بساط الواقع • ففي « السفينة ليل » نرى غالما يحده الحب من طرف • والموت من طرف آخر • أشخاص يجتازون الرحلة في سفينة ليل • لا أسماء لهم أو عوالم محددة • تحدد هويتها صور سريعة أو حوار عابر • أو تعليق طويل • وفي هذه السفينة نرى ثلاثة أشخاص • هم صورة مكررة من الذين تحدث عنهم سارتر في « الأبواب المغلقة » : رجل وامرأتان • يدور بينهم حوار غير متتابع وبلا منطق وقد أخرجت الكاتبة هذه الرواية بنفسها لكل من السينما والمسرح •

وعرضت كافة النصوص فى نفس الفترة الزمنية عام ١٩٧٨ .
ويقول روبير كانته - لويوان فى ٢ ابريل ١٩٧٩ - « ان السفينة
ليل تضم العابرين والقباطنة والغواصين الذين يمثلون جزءا من
الوعى ، الذى ينبثق من أعماق الظلمات حيث تسلك طريقا لبحرنا
الخاص » .

واذا كانت الكاتبة تميل الى استخدام لغة خاصة فى أدبها .
فانها تحول كل كلمة الى صورة فى أفلامها وتقول انها تمارس نوعا
من القهر والضغط النفسى على مشاهدى أفلامها : « حدثنى شخص
يوما أنه قد اتفق أن يعرض أفلامى على مسافة أربعين كيلو مترا
من باريس . انها فكرة رائعة . فهكذا نرغب ان تعرض أفلامنا .
فأنا أعرف اننى أوجه أعمالى الى ثلاثين ألف شخص . وأنا أعمل
من أجلهم . ولن يحرمنى هذا من امتاع الآخرين . وعلى كل فلا يوجد
جمهور شعبى فى فرنسا مثلما يحدث فى العالم بأسره . فالكل
سوف يفهم . من العمال وحتى المفكرين . لن يوجد طليعيون ، لكن
فقط أناس يخلصون لتجاربيهم » .

« العاشق » فازت بجائزة الجونكور عام ١٩٨٤

هذا هو بعض عالم مرجريت دوراس . ولم يكن للكاتبة ان تحصل قط بايداعها التجريبي على جائزة جونكور . الا اذا كان أعضاء هذه الأكاديمية قد رأوا في هذه الرواية عملا تقليديا أكثر من أعمالها الأخرى التي كتبتها في السنوات العشرين التي سبقت هذه الرواية . وهذه حقيقة لا يمكن انكارها . . فنحن أمام موضوع محدد ، هو علاقة عاطفية عاشتها الكاتبة في مستقبل حياتها . حين كانت تعيش مع أسرتها في شرق آسيا ابان الاحتلال الفرنسي لفيتنام . . وهي علاقة تخص جلد الكاتبة ومسامها في المقام الأول . . نابعة من وجدانها الداخلي . تنخر في ذاتها كي تكتبها . . وقد قامت وهي المرأة العجوز باجتراح أحداث هذه العلاقة العابرة بتفاصيل بالغة الدقة . ولنقل انها ليست تجربة عابرة بقدر ما هي تجربة أولى . . وقد وظفت الكاتبة كل ما لديها من أجل هذه العلاقة حتى علاقاتها الأخرى بمن حولها . بأسرتها وأصدقائها . وزميلاتها في المدرسة . . كل هذا تم توظيفه من أجل هذا العاشق . وهو عاشق كما يسنرى رقيق الجلد والمسام . . هش المشاعر . . سلبي الاحساس . . يتعامل كثيرا مع النساء بحكم ثراء أبيه وليس بحكم فحولته . . وهو رجل بلا اسم مثل كل شخصيات الرواية . فتارة

هو « العاشق » تارة « هو » وثالثة « حبيبي » هو خيال يمكن
تجاوزه وعدم ملاحظته مثلما تقول الحبيبة بعد ان أصابتها
الشيخوخة ..

والمهم في هذه العلاقة هو الشكل الذي صاغت به الكاتبة
حدوتتها .. فالشكل الروائي غالبا تقايدى .. أو أصبح تقليديا
بحكم تكراره في العديد من الروايات الماثلة . ولكن الجديد في هذا
الشكل هو اللغة .. وإصرار الكاتبة على استخدام محددات خاصة
وخاصة ما يسمى بالتكرار .. فلو قرأت هذه الرواية للوهلة
الأولى .. ولم يكن لديك أى انطباع عن الكاتبة وتاريخها لقلت ان
لغة الكاتبة هي لغة الخواطر التى يدون بها الشباب المبتدئون انطباعاتهم
نحو الأشياء من حولهم . وخاصة ما يتعلق بانفعالاتهم الأولى تجاه
طرف آخر من جنس آخر .. وفى مثل هذه الكتابات فإن التكرار
هو السمة الأساسية . التكرار اللفظى . والتكرار فى وصف الحدث
بعبارات جديدة . التكرار اللفظى يمثل فى تكرار معنى أو كلمة ذات
مدلول خاص أكثر من مرة . اما لترسيخ المعنى أو لاعطاء معنى مغاير
لما قصد به عند ذكرها أول مرة .. والكاتبة هنا تجده مشاعرها ..
وتتلذذ بهذا التكرار .. ولعلها ظلت تفعل ذلك لمدة ثلاثة وخمسين
عاما . هي المسافة بين زمن هذه التجربة وكتابتها بهذا الشكل ..
لذا راحت تحفر بكلماتها فوق الورق . فهي تكرر العبارات التى
تنتمى الى هذه الآونة . والى خصوصية هذه العلاقة .. واعتقد أن
هذا قد ميز لغة الكاتبة وجعلها تعود الى اللغة التقليدية - أو قريبا
من ذلك - أو المترابطة معا فى جمل وفقرات وفصول وهكذا . وهذا
ما جعل أعضاء أكاديمية جونكور يرونها عملا تقليديا فى المقام
الأول ..

ولأن هذه الأحداث ظلت ماثلة فى مخيلة الكاتبة كل هذه
السنوات . فقد أصبح من الصعب معرفة هل هي أحداث من الحاضر

أم من الماضي . ولذا فقد اختلطت الأفعال الزمنية معا . المضارع يتداخل مع الماضي . وامتزجت الأزمنة معا ، في الفعل والحدث ، وأصبحت الكلمات الجامدة والأسماء طيعة للتحرك وسط هذه الأفعال . . . تنتقل حسب حركة وجدان الكاتبة من عام ١٩٨٤ إبان كتابتها الى السنوات الأولى من الثلاثينات بل حدث ما هو أبعد من ذلك حيث اختلطت الأماكن أيضا . . . فهي تتكلم عن حياتها في باريس وتتصور كأنها لا تزال تتحدث عن سايجون أو شولن والعكس بالعكس . . . وفي فقرة تحدثك عن مكان تنتقل منه الى مكان آخر له نفس الصلة الوجدانية دون ان تمهد الى ذلك . . . فعقلها ينتقل بسرعة بين هذه الأشياء دون ان يستأذنها . ولذا فهي لا ترغب ان تقوم بنفس العملية من الاستئذان لقارئها . . .

الأشياء الثابتة الوحيدة هي الانسان . . . والأماكن . . . فهي لا تخلط بين مشاعرها نحو البشر . . . وهي غير متقلبة في حالة التنقل . فهذه أمها لها دائما نفس السمات وهناك مشاعر تكنها نحوها لا تتغير ، مهما تغير الزمن . وهكذا بالنسبة للأخ الأكبر الذي لم تقل فيه ، أبدا ، كلمة طيبة . بعكس الأخ الأصغر الذي تحبه وكأنه عاشق من نوع خاص . . . وتذكره بمناسبة أو بدونها . . . وتحاول ان تقيم على شرفة وليمة أدبية خاصة . . . كذلك فان علاقتها بالأمكنة ذات مدلول خاص . كالغرفة الصغيرة التي كانت تذهب مع حبيبها الصيني من أجل اجتراح رشقات من الحب . وأيضا العبارة « التي كانت تركبها يوما لتعبر النهر والتقت فوقها لأول مرة بهذا الرجل الثرى صاحب السيارة السوداء الفارحة . . . هذه العبارة هي شخصية رئيسية في الرواية . فالكاتبة دائما تروح تتحدث عنها . ثم تبتعد مسافة زمنية وتعود اليها مرة أخرى . . . فاليها يعود الفضل في اللقاء الأول . . . والعبارة هي النبع الذي تصب منه كل التجربة واليها يعود البرء كي يرتشف . . . رغم انه لم

يحدث سوى لقاء واحد بين الطرفين فوق العبارة الا أنها ذكرت
فى الرواية عددا من المرات أكثر من غرفة « الجارسونيرة » التى
ارتشفا فيها من الحب أحلام ..

وإذا كانت الكاتبة قد انتقلت بسهولة بين الأزمنة . فإنها
انتقلت بنفس الكيفية بين وجودها الخاص .. فهى تتكلم عن
نفسها أحيانا بالضمير الحاضر المتمثل فى je . ثم تنتقل لتتكلم
عن نفس الوجود بضمير الغائب وكأنها شخص غريب عنها تماما ..
وكانها كائن تتم ملاحظته تحت العين المجردة لمعرفة وادراك ماله
.. أو ما عليه .

كما يهمنى أن نشير الى أن قراءة هذه الرواية مرة واحدة
لا تكفى . فكلما قرأها القارئ أكثر من مرة اكتشف المعانى الخفية
فيها .. واستطاع أن يربط أنسجتها التى قد تبدو له مفككة فى
القراءة الأولى .

إذا كان هذا هو بعض من رأينا فى هذه الرواية . فيهمنا ان
نعرف ماذا كتبت الصحافة الأدبية بصفة خاصة عن « عاشق » /
مرجريت دورا . يقول بيير بيار فى مجلة لوبوان - ١٩ نوفمبر
١٩٨٤ - ان مرجريت دورا لم تحدثنا أبدا فى رواياتها السابقة عن
نفسها ولا عن شئ منها . وانها اختارت أن تفعل ذلك وهى فى
سن السبعين . فأخذت تتأمل الفتاة الصغيرة التى كانت تعيش
عاطفة جافة فأرادت ان تمنحها كل شئ من ذاتها . وهذا يكشف
لنا بشكل جوهري الدور الملعوب فى تكوين عواطفها ، وتأسيس
ذاكرتها ، وتزيين عالمها فى السنوات الثمانى عشرة التى سبقت
وصولها الى باريس . هذه السنوات التى عاشتها فى الهند الصينية
مع أمها مدرسة البيانو التى قامت فيما بعد بشراء قطعة من الأرض
فى كمبوديا من أجل زراعتها بالأرز . وقد تحدثت عن هذه التجربة
فى رواية « خزان فوق المحيط الهادى » . هذه الأم بالغة الحضور ،

ومحبوبة للغاية . ولكنها ضد كل الأشياء التي يجب التمرد عليها
وتمنع ابنتها من الكتابة .

ويقول جان بيير آميت في لويوان - ٢٤ سبتمبر ١٩٨٤ - ان
مرجريت دوراس لا تصنع الكتب . ولكنها تعيش في الكتاب مثلما
يعيش الانسان داخل شعائر دينه وفي كل فقرة من الرواية تحمل
شحنة من التجربة ، فهي تلميذة في مدرسة الدراما ، تعيش نوعا
من الارتجاف المرن الذي تبحث عنه بلا جدوى بين الكتب الأخرى
التي ظهرت في الآونة الأخيرة . فما نحن أمام امرأة تحترق وتعنى
وتعيش وتموت بين حرارة الذكرى وبرودة الطفولة الضائعة .

أما الروائي لوسيان بودار فهو من أصول صينية . ويقول
حول هذه التجربة « الهند الصينية التي انتمت اليها دائما وأجدها
في نفسى مثلما فعلت . في هذا الوصف للسيارة السوداء للرجل
الصيني فوق العبارة التي تعبر نهر الميكونج ! وصفت كل هذا
بعبارات محددة مليئة بالهذيان . وفي نفس الوقت فانها لا تكشف
عن شيء . والتزم النص بكل ما هو ممكن حدوثه . فلكل انسان
الحق في التخيل ، ولكن عليه ان يبرهن بشكل طبيعي عن الجو الذي
عاشه في آسيا .

ويرى كلود روا في مجلة لوفيل اوبسرفاتور - ٣١ أغسطس
١٩٨٤ - أنه يجب ألا نحكى « العاشق » سوى أن نفعل مثلما تروى
قصيدة شعر . لأن هذه الرواية هي شطر من الحياة . هذه العقدة
من السيرة الذاتية ، مثلما يكتب المؤلفون عادة ، قد تم تكوينها على
غرار قصيدة . فهل هناك شخص يجرؤ على تلخيص قصيدة شعر ؟
لن يبقى له سوى حفنة من دماء متناثرة وشظايا موضوع الحب
والصراع . والحب هو المعركة للصغيرة مرجريت من أجل أمها .
هذه المجنونة بسايجون . والأخ الأكبر المتشرد والأخ الأصغر الذي

مات في سن مبكرة ، والعاشق الملياردير الصيني ، والذي يمكن
ان يقال انها تطلب ان ينتزعها من عالمها .

هذه هي بعض من ملامح الرواية التي نقدمها اليوم الى القارئ
العربي وقد يجدها القارئ قريبة في شكلها تقليدية في مضمونها . .
لذلك فان القارئ في حاجة الى تدريب خاص من أجل قراءة هذا
النوع من الروايات . ثم من أجل الاستمتاع بها . . .

العاشق

مرجريت دوراس

ذات يوم ، وكنت قد أصبحت امرأة عجوز ، رأيت رجلا في قاعة عامة ، يسير ناحيتي ، بدا كأنه يعرفني ، وهو يقول لي : « أعرفك منذ وقت طويل ، يقول جميع الناس انك كنت جميلة وانت شابة . لذا جئت لأخبرك أنني أراك الآن أكثر جمالا مما كنت عليه وانت شابة . أحببت وجهك كشابة صغيرة أقل مما أحب وجهك الآن . انه فاتن » .

أفكر دائما في هذه الصورة . فأنا الوحيدة التي أراه كذلك ، لذا لم أتكلم عنه أبدا . انه هناك دائما داخل نفس الصمت . يبدو رائعا . انه في كل الأحوال يحجبني عن نفسي . رغم أنني أتعرف فيه على نفسي ، فأشعر بالسعادة .

حدث كل شيء بسرعة في حياتي . في وقت مبكر . أجل . فسن العاشرة كان وقتا مبكرا . وبين الثامنة عشر والخامسة والعشرين يمت وجهي الى ناحية غير معروفة . شعرت بالشيخوخة في الثامنة عشر . لم أكن أعرف هل أشبه كل الناس . لم أطرح هذا السؤال أبدا . يبدو أنهم حدثوني عن هذه الدفعة من الزمن التي تطرق عليك بابك بغتة ، وتجتاز سنوات الشباب التي هي أكثر شهرة في العمر . أما هذه الشيخوخة فهي قبيحة . رأيتها تتسرب الى ملائحتي الواحدة تلو الأخرى . وتغير الروابط فيما بينها . فتجعل العيون أكثر شيخوخة . والنظرة أعمق حزنا . والفم أشد خشونة .

وتبدو الأخاديد عميقة فوق الجبهة • وبدلاً من أن أخاف رأيتني
أستعرض ، باهتمام ، هذه الشيخوخة التي أصابت وجهي • عاملتها
كأنها مسلسل لعمل أدبي • كنت أعرف أنني لا أخدع نفسي •
وانها سوف تخفف من سرعتها يوماً • وستمشي في مجراها الطبيعي •
أحس بذلك الناس الذين عرفوني في سن السابعة عشرة وأنا
في رحلتى الى فرنسا • كانوا يبدون مندهشين وكأنهم يرون قى
وجهاً جديداً • وبعد عامين • وعندما بلغت التاسعة عشرة كنت
لا أزال أحتفظ بهذا الوجه الجديد • انه وجهي • أصابته الشيخوخة
أكثر بكل تأكيد • ولكن بنسبة أقل مما يجب • انه وجه مليء
بالأخاديد اليايسة والعمية • والبشرة المتهدلة • لم يكن قد أصابه
الارهاق مثل بعض الوجوه ذوات البشرة الناعمة • لا يزال يحتفظ
بنفس خطوطه العامة ولكن مكوناته متهدلة • أجل كان وجهي متهدلاً •

كما أخبرتكم ، فأنا في الخامسة عشر والنصف •

أقف فوق عبارة خشبية على نهر الميكونسج •

وتمتد أمامى المناظر طيلة عبور النهر •

عمرى خمسة عشر عاماً ونصف • لا شئ معقول فى
هذا البلد • فنحن نعيش فى فصل واحد حار ، طيلة العام ، له
نفس الوتيرة • نحن فى منطقة واسعة شديدة الحرارة • فلا ربيع
هناك ولا أى شئ جديد •

أقيم فى بنسيون حكومى فى مدينة سايجون ، أنام وأكل هناك •
من هذا المكان • أذهب الى مدرستى البعيدة • اليسيه الفرنسية •
تعمل أمى مدرسة • وتريد لابنتها الصغيرة ان تلتحق بالمدرسة
الثانوية • « المدرسة الثانوية ضرورية بالنسبة لك » • وما يرضيها
أننى لست صغرى أبنائها • الالتحاق بالمدرسة الثانوية أولاً • ثم

الحصول على شهادة في علم الرياضة . سمعتها تكرر هذا الكلام مرارا منذ سنوات الدراسة الأولى . لم أتخيل أبدا أنه يمكنني الافلات من الحصول على شهادة في علم الرياضة ، كنت سعيدة أن أجعلها تأمل . أرى أمي تعمل كل يوم من أجل مستقبل أبنائها ومستقبلها . لم تكن هكذا من قبل . تتصرف بكبرياء من أجل مصلحة أولادها . كأنها صنعتهم من رجال آخرين . مستقبل بعيد جدا . يملأون فيه وظائفهم . ويدفعون الزمن أمامهم . أتذكر دروس المحاسبة لأخي الصغير . في المدرسة الدولية . في كل سنوات الدراسة وعلى كافة المستويات . يجب أن يبلغ الهدف كما تردد أمي . يستغرق هذا الأمر ثلاثة أيام ، أبدا . بل أربعة ، أبدا . سرعان ما انتبذ المدرسة الدولية عندما غير وظيفته . وقرر البدء من جديد . انتظرت أمي عشر سنوات ، لكن شيئا لم يحدث . أصبح الأخ الأصغر محاسبا صغيرا في سايجون . ولأنه لا يوجد نظير لمدرسة فيوليه في المستعمرة . فانا مدانون بذلك لرحيل أخي الأصغر الى فرنسا . بقي في فرنسا بضع سنوات من أجل الدراسة في مدرسة فيوليه . لكنه لم يفعل ذلك . لم تود أمي أن تخدع . لم يكن أمامها خيار . عليها ان تفصل هذا الولد عن ولديها الآخرين . فمنعت أي شخص من الأسرة عن الرحيل طوال سنوات . وفي غياب أمي قدمت تنازلا . مغامرة مرعبة . خاصة بالنسبة لنا نحن الأطفال الذين كان علينا البقاء . انها أقل رعبا حيث لا تتضمن سوى حكايات عن سفاح الأطفال في الليل . وحكايات عن ليل الصيادين .

قيل لي دوما ان حرارة الشمس كانت لافحجة أثناء سنوات الطفولة . لكنني لم أصدق ذلك . قيل لي أيضا ان ذلك هو انعكاس للمأساة التي يسبح فيها الأطفال . لكن أبدا ليست الأمور على هذه الشاكلة . فالأطفال يشيخون من الجوع القارص . أجل لكن نحن ، لسنا بجوعى فنحن من الأطفال البيض . ولأن لدينا حياة ، كنا نبيع

أثاث بيتنا لكننا لم نجع . كان لدينا خادم وطعام ، نأكل أحيانا ، وهذا واقع ، طعاما من النفايا والطيور المائية والتماسيح الصغيرة . الخادم هو الذى يطهى هذه النفايا ويقوم بالخدمة علينا ، وفى امكاننا أن نرفضها . كنا نتمتع بهذا الامتياز . وان فى قدرتنا العزوف عن الطعام . لا . شىء ما كان يحدث . عندما كنت فى الثامنة عشرة مما جعل الوجه يتشكل على هذا النحو . أخاف من نفسى ، ومن الله . وعندما ينبلع النهار أحس بخوف أقل فيبدو الموت أقل مهابة . لكنه لم يبرح دارنا . تنتابنى الرغبة فى أن أقتل أخى . كم وددت أن أقتله . أشعر أكثر من مرة أن لى الحق فى قتله . مرة واحدة أراه يموت . انه يشكل كل عواطف أمى . هذا الولد . قدرى فيه أن أمى أحبته بشدة ، وبشكل يسىء إلينا . مما آلم أخى الأصغر . لقد صدم أيضا ذلك الأخ الصغير . طفلى أنا ، أحس الأخ الأكبر طوال حياته أنه فوق أقرانه . وأنه يعيش فى غلالة سوداء طيلة النهار . وان له قانونه الانسانى . صنع منه نوعا آدميا . يستمد منه قانوننا حيوانيا . وفى كل لحظة ، وفى كل يوم من حياة هذا الأخ الصغير يتشكل الخوف . خوف تسرب يوما الى قلبه فأماته . كتبت الكثير عن هؤلاء الناس من أسرتى . فعلت ذلك وهم لا يزالون على قيد الحياة . أمى واخوتى ، كتبت عنهم وعن أشيائ عديدة تخصهم . لكن كل هذا لم يضل اليهم .

لم تحدث قصة حياتى يوما ما . وكأنها شىء لم يوجد . وليس لها مركز ولا درب . ولا خط . هناك أماكن فسيحة تصورنا أن بها شخصا ما . لكننا اكتشفنا ان أحدا ليس بها . لكن هناك جزءا بسيطا من شبابى كتبت عنه الكثير . أردت أن أتكلم وأن ألح . أن أتحدث عن عيور النهر . بشكل خاص . وان ما فعلته هناك يختلف . أو لعله يتشابه . ففىما قبل . كنت كثيرة الحديث عن هذه الفترات الجلية . كما تكلمت عن فترات أخرى غامضة . عن

سنوات الشباب وبعض الحمية التي أبديناها حول بعض الأمور .
وحول بعض المشاعر . وبعض الأحداث : بدأت في الكتابة عن
هذا العالم الذي صنع منى مخلوقا قويا فيما يتعلق بمسألة الأخلاق .
لذا فالكتابة من أجلهم شيء مهم . تبدو الكتابة الآن كأنها ليست
بذات أهمية مطلقا . أحس بهذا أحيانا . وأنه في لحظة ما فإنها
ليست بذات أهمية . حين تختلط الأشياء وتذهب أدراج الرياح .
الكتابة ليست شيئا ، سوى لحظة بلا جدوى . في كل مرة تختلط
الأشياء في شيء واحد ذي جوهر غير مميز ، ليست الكتابة سوى
درب من الاعلان . لم أؤمن قط بهذا الرأي بل أرى الحقول مفتوحة .
وان الجدران لم تعد موجودة . وأننا لا نمارس الكتابة سوى لنختفي
وراءها . ثم نقرأها . وان قراءتها ليست سوى شيء أكثر وقارا .
لكنني لم أفكر في هذا من قبل .

الآن ، أرى نفسي في مستقبل الشباب . في الثامنة عشرة ، في
الخامسة عشرة . صاحبة وجه قدرى حصلت عليه ، بفضل الكحول ،
في مرحلة وسطى من حياتي . لقد قام الكحول بالمهمة التي لم
تستطع السماء أن تفعلها . في امكانه أن يقتلني . يقتل هذا الوجه
الشملي . جاءني قبل الكحول . وجاء الكحول ليؤكد . وتماسكت
في مكاني . عهدت فيه وجها مثل بقية الوجوه الممتلئة بهجة ولم
أكن أعرف البهجة بعد . هذا الوجه الذي يرى نفسه مليئا بالقوة .
حتى أمي كان يجب أن تراها بهذه الصورة . وكذلك أخوتي بدا
كل شيء بهذه الطريقة بالنسبة لي . فالوجه الشفاف منهسوك .
والعيون تتطلع الى الأمام وكأنها مليئة بالتجربة .

عبرت النهر وأنا في الخامسة عشرة والنصف ، عندما عدت الى
سايجون ، أحسست أنني في رحلة خاصة وأنا أقل السيارة .
ركبت السيارة في الصباح متوجهة الى سادك حيث تدير أمي مدرسة
البنات . لم أكن أعرف أكثر من أن الأجازات الدراسية قد انتهت .

ذهبت لقضائها في منزل أمي الوظيفي الصغير . في هذا اليوم عدت الى البنسيون في سايجون . أما سيارة الأهالي فقد غادرت موقف السيارات في منطقة سادك وكالعادة اصططحتني أمي وعهدت بي الى السائق . مثلما تعهد بي دائما الى سائقي هذه السيارات . بسايجون ، تفاديا للحوادث ، وخطر الحريق والاعتصاب وهجوم قطاع الطرق . أو لعطل مفاجئ في العبارة . وكالعادة يأخذني السائق بالقرب من مقعده في مقدمة السيارة . في الأماكن المخصصة للمسافرين البيض .

وأثناء رحلة السفر تكون الصورة مبهمة . والصورة يجب ان تكون مائلة بشكل عام . كان من الواجب ان تلتقط لي صورة وأنا في هذا الوضع . هنا أو تحت أي ظروف أخرى . لكن هذا لم يحدث . فالتقاط صور في هذه المناسبات أمر بالغ الرقة . لكن ، من يمكنه التفكير في هذا ؟ لم نكن نستطيع أن نلتقط صورة الا اذا أمكن الأخذ في الاعتبار أهمية هذا الحدث في حياتي . عبور النهر . انه منظر مائل في الذاكرة دوما . رغم أننا كنا نجهل أهميته في الوجود ، فالله وحده يعلم . لذا فهذه الصورة لا يمكن أن تكون صورة أخرى قط . لقد تم نسيانها فترة طويلة ، ولم نعد في حاجة الى انتزاعها أو التقاطها من الذاكرة بشكل نهائي . لكنها بالنسبة للمؤلف تصبح بذات أهمية لما تمثله .

حدث هذا أثناء عبور نهر الميكونج فوق العبارة التي تعبر بين مدينة فنلونج وسادك ، قريبا من التل الكبير المليء بالطين ، وحقول الأرز الجنوبية الواقعة في وديان كوشين الصينية بوادي الطيور . نزلت من السيارة . وسرت عبر شريط ضيق وأنا أتطلع الى النهر . تقول لي أمي أحيانا انني لن أرى إل النهر أبدا ، في حياتي ، أكثر جمالا من منظره هذا . ولا أكثر اتساعا مما هو عليه في تلك اللحظة ، ولا أكثر توحشا . هذه الأراضي المائلة التي تختفي داخل

تجويف المحيط . فى المسطحات على مرمى البصر . تتحرك هذه
الأنهار بسرعة وتصيب كأن الأراضى معلقة فيها .

أنزل دائما من السيارة عندما تصل العبارة ، يكون الليل
قد حل ، فأصاب بالخوف . الخوف من الأسلاك الممتدة التى تجذبنا
فى اتجاه البحر . فى تيار مخيف وكأننى أطلع الى اللحظة الأخيرة
من حياتى . التيار بالغ العنف . يشد كل شئ اليه ، حتى الحجارة
والكاتدرائية والمدينة . وكأن هناك عاصفة تهب من أعماق مياه
النهر . فتجعل الرياح تهب بشدة .

أرتدى ثوبا من الحرير الطبيعى . قديما وشفافا . كان فيما
قبل ثوب أمى . لم تعد ترتديه لأنه بالغ الشفافية بالنسبة لها
فأعطته لى . ثوب بلا أكمام . يكشف عن جزء من الصدر . وهو
داكن . من الحرير الطبيعى المستعمل . ثوب كثيرا ما أذكره يجعلنى
جميلة . فأضع حزاما من الجلد على وسطى . لعله حزام أحد
أشقائى . لا أذكر الأحذية التى كنت أرتديها فى تلك السنوات .
لكننى أذكر فقط بعض الأثواب . وفى أغلب الوقت كنت أمشى
بصندل من الكتان . اننى أتكلم عن المرحلة التى سبقت زمن المدرسة
فى ساييجون . بدءا من هنا ، على وجه التأكيد ، بدأت فى ارتداء
الأحذية . وفى هذا اليوم ، كان يجب أن أرتدى الحذاء الشهير ذا
الكعب العالى والطرف المدبب الذهبى . لا أرى شيئا آخر سوى أننى
أستطيع أن أرتديه فى ذلك اليوم . اذن فقد ارتديته كبقايا للتصفية
اشترته لى أمى . ارتديت هذا الطرف الذهبى كى أذهب الى اليسيه .
ذهبت الى المدرسة بحذاء السهرة المرصع . بحبات الماس الصناعى .
حسب رغبتى . لم أحتمل نفسى أبدا بهذا الزوج من الأحذية
وما زلت ، حتى الآن ، أجد نفسى على هذه الشاكلة . هذه الكعوب
العالية هى أول ما ارتديت فى حياتى ، انها جميلة . وهى تغلب

كافة الأجدية التي ارتديتها فيما قبل • سواء للجري أو للعب •
مسطحة ، من التيل الأبيض •

ليست الأجدية ، فقط ، هي التي تصنع ما هو غريب ، وغير
مألوف • ففي هذا اليوم • كنت أرتدى ملابس فتاة صغيرة • كل
ما ارتدته في هذا اليوم قبعة رجل ذي قمة مسطحة • قبعة من
اللباد المرن لها لون الخشب الوردي ، وعليها شريط أسود طويل •
تمثل الغموض هذه الصورة من خلال هذه القبعة •

لقد نسيت كل ما حدث لي ، لا أرى لماذا أعطتني أياها • أعتقد
أن أمي قد اشتريتها لي وبناء على طلبى ، كى تؤكد أنها بقايا
التصفيات • كيف يمكن أن أشرح هذه الحالة الشرائية ؟
فلا توجه امرأة ، أو أى بنت ، يمكن أن ترتدى مثل هذه القبعة
اللبادية الرجولية في هذه المستعمرة فى تلك الآونة ، حتى المرأة
الوضيعة • هذا ما كان يجب أن يحدث • كل ما فعلته بهذه القبعة ،
اننى ضحككت أمام مرآة البائع وأنا أرى نفسى مرتدية قبعة رجل •
أبدو كامرأة نحيفة • لقد تحولت هذه الطفلة الى شيء آخر • أشبه
بهدية من السماء وقحة وقدرية • أصبحت ، رغم كل شيء ، أمثل
اختيارا معاكسا لكل هذا • فكل ما أردته فجأة هو اختيار الفكرة •
رأيت نفسى فجأة امرأة أخرى • كأن امرأة أخرى ترانى من الخارج •
تضع كل شيء فى اعتبارها • وتضع فى هذا الاعتبار كافة الأنظار
الموجودة داخل حركة المدينة ، والطرق • أخذت القبعة ولم أنفصل
عنها لحظة • لقد نلت بهذه القبعة كل ما يجعلنى لها وحدى • لذا
لن أتركها أبدا • أما الحذاء فعليه ان يتلائم معه • • يبدو متناسبا
مع القبعة مثلما تتلائم القبعة مع الجسم النحيف ، التى بدت كأنها
مصنوعة من أجلى • وأننى لن أتركها سوف أذهب بهذا الحذاء الى

كل مكان • وأخرج بهذه القبعة في كل الأوقات • وفي كل المناسبات • وسأنزل بها الى المدينة •

عُثِرَت على صورة فوتوغرافية لابني وهو في سن العشرين •
انه في كاليفورنيا مع صديقته اريكا واليزابيث لينارد • يبدو بالغ النحافة • يقال انه أصبح أبيض في أوغندا • رأيتُه يبتسم في كبرياء ويبدو عليه بعض السخرية • أراد أن يظهر في الصورة كشاب متشرد • أنه معجب بنفسه هكذا • في هذه الهيئة المزدرية • أصبح نحيفا بشكل ملفت للنظر • أكثر نحافة في الصورة مما كانت عليه فتاة العبارة الصغيرة •

هي التي اشترت قبعة وردية ذات حافة مسطحة وشريط أسود عريض • هذه المرأة التي تظهر في بعض «التصاوير» أنها أمي • عرفتُها أفضل في بعض الصور الحديثة • في فناء منزل بطل على بحيرة هانوي الصغيرة • كنا معا • هي ونحن : أطفالها • كنت في الرابعة • أما أمي فتقف في منتصف الصورة • أدركت جيدا أنها تعاني من ألم • لذا فهي لا تبتسم • وكأنها تنتظر ان يتم التقاط الصورة على وجه السرعة • في ملامحها شحوب وملابسها غير مهندمة • وعلى عينيها نظرة ناعسة ، أعرف أن الجو كان حارا وأنها كانت مريضة ، وتحس بالملل • لكننا بهذا الاسلوب الذي ارتدينا به ملابسنا ، نحن أبناءها ، نبدو أشبه بالمساكين • أما أمي فتبدو وكأنها سوف تقع • في تلك الآرنة التي يعود اليها زمن الصورة • كانت هناك دلائل التبشير • انها أمور تحدث فجأة ، فلا يمكن أن نغتسل أو أن نرتدى ملابسنا • وأحيانا لا نتناول غذاءنا • هذا الاحباط الحياتي الكبير ، كانت أمي تجتازه يوميا • وفي بعض الأحيان يستمر • أو يختفي مع حلول الليل • كنت محظوظة ان تكون لي أم أشد بأسا من اليأس • رغم كل مباحج الحياة • فهي مليئة ، أحيانا ، بالحيوية ، ولم يحدث أن شردت يوما • كل ما كنت

أجهله هو تلك الأمور المتعمدة التي تمارسها يوميا . وتتركنا على هذه الشاكلة ، مثل هذه المرة . بعد أن ارتكبت غلطة شنعاء . فهذا المنزل الذي شيدته والموجود في الصورة ، لم تكن أمي في حاجة اليه . خاصة عندما كان أبي ملازما الفراش . وعلى وشك الموت . طوال عدة أشهر . ربما لأنها علمت أنه مصاب بهذا المرض الذي سوف يقضى عليه . لقد توافقت التواريخ . وكنت أجهل كل هذا مثلها تماما . تلك هي طبيعة الظروف التي كانت تمر بها . والتي سببت كل هذا الاحباط الذي تراءى أمامها . هل كان موت أبي ماثلا لها . هل حدث في نفس اليوم ؟ هل تشككت في هسذه الزيجة ؟ وهذا الزوج ؟ وهؤلاء الأطفال ؟ أو ، بصفة عامة ، في كل هذه الأشياء ؟

في كل يوم ، أحس كما أن هذا مؤلم . ففي لحظة ما تحس بهذا اليأس البادى على ملامحها . وأن المستحيل يتقدم خطاها . تلجأ الى النوم أحيانا . أو قد لا تفعل شيئا . وفي بعض الأحيان تتصرف بأسلوب معاكس فتذهب لعمل المشتريات . أو تغير أماكن الأثاث كحالة مزاجية . أحيانا تحس بالارهاق . وفي أحيانا أخرى تحس أنها ملكة وعلى الجميع ان يطلب ودها . ففي هذا المنزل الذي يطل على البحيرة . مات أبي بدون جرم ارتكبه . وفيه أيضا قبعة ذات حافة مسطحة . ترتديها الصغيرة بالحاح وهذا الحذاء المدبب الطرف . أو على هذه الشاكلة . حيث لا شيء سوى النوم أو الموت .

لم أر قط الفيلم الذي يرتدى فيه الجنود مثل هذه القبعات ذوات الحافة المسطحة والجداول المسترسلة على أجسادهم . في تلك الآونة لم أكن أطلق جدائي مثلما أفعل عادة . اعتدت أن أطلق صغيرتين طويلتين ينزلان فوق جسدي مثل ممثلات السينما اللاثي لم أرهن . كانت صفائر طفلة . لكن بعد ان ركبت العبارة . لم أعد أطلق لشعري العنان . وآثرت أن أسحب شعري وأقصه الى الوراء .

أردته أن يكون مسطحاً • وان يبدو قصيراً • أمشطه كل مساء
وأصنع دوائر قبل أنام مثلما علمتني أمي • كان شعري ثقيلاً •
مرناً • رقيقاً • وكأنه كتلة نحاسية تكاد أن تطال خصرتي • سمعت
دوماً أنني كنت صاحبة أجمل شعر وهذا يعني أنني لست جميلة •
لذا قصصت هذا الشعر المثير للالتفات وأنا في الثالثة والعشرين
بباريس • بعد خمس سنوات من ابتعادي عن أمي قلت « قصه »
فقصه كله بضربة مقص واحدة بهدف تشذيبه • بدأ المقص بارداً
وهو يلمس رقبتني • سقط فوق الأرض • سألتني أن كنت أريده •
وأن يصنع لي منه باقة • أجبت بالرفض ، فبعد هذا لن يقال أنني
صاحبة أجمل شعر • أريدهم إلا يرددوا هذا فيما بعد • مثلما كان
يحدث قبلاً • قبل أن أقصه • سوف يقولون بعد ذلك : إنها ذات
عيون جميلة • وابتسامة عذبة •

أنظر إلى نفسي فوق العبارة • وأنا في الخامسة عشرة والنصف •
أبدو شاحبة • فأضع من مسحوق التوكالون على وجنتي • أحاول
أن أخفي البقع الحمراء التي تحت عيني • وأضع فوق مسحوق
التوكالون مساحيق لها لون الجلد • تحمل اسم هوبيجان • أنه
نفس المسحوق الذي كانت تضعه أمي قبل أن تذهب إلى الإدارة العامة
في كل مساء • في هذا اليوم كان معي أحمر شفاه داكن أشبه
بالكراز • لم أعرف من أين أحضرته • ربما أن هيلين لا جونيل قد
سرقته لي من أمها • لا أعرف على وجه التحديد لم أكن أمتلك عطوراً •
أما أمي فكانت لديها كولونيا وصابون بالموليف •

فوق العبارة ، وبجوار السور ، وقفت سيارة ليموزين سوداء ،
يرتدى سائقها سترة من القطن الأبيض • أشبهه بأجمل سيارة
شاهدتها في كتبي • من طراز مورييس ليون - بولليه • ذات مخطاف
وأشبهه بسيارة السفارة الفرنسية اللانثا السوداء في مدينة كلكتا •

فى هذه السيارات • توجد ستائر زجاجية تفصل السائقين
عن السادة • وهنا أيضا مقاعد هزازة • وتبدو السيارة كبيرة أشبه
بغرفة •

فى السيارة الليموزين ، يجلس رجل بالغ الأناقة • ينظر
الى • أنه ليس أبيض البشرة • يرتدى ملابس على الطريقة الأوروبية •
بدلة من الحرير الهندى الفاتح أشبه ببدل موظفى بنك سايجون •
ينظر الى • اعتست على نظرات الناس لى • مثلما ينظرون الى نساء
المستعمرة من البيض • خاصة البنات الصغيرات من البيض اللائى
بلغن الثانية عشرة • فمذ ثلاث سنوات والبيض ، أيضا ، ينظرون
الى فى الشوارع • ويسألنى أصدقاء أُمى ، بلطف ، أن أذهب الى
منازلهم لتناول مشروب فى الساعات التى يلعب فيها زوجاتهم
التنس بالنادى الرياضى •

أستطيع أن أخدع نفسى ، وأعتقد أننى جميلة مثل كل النساء
الجميلات ، مثل النساء اللائى يجذبن الأنظار • فهم ينظرون بالفعل
الى • لكننى أعرف أن هذه مسألة لا تتعلق بالجمال وإنما بشئ آخر •
مثلا • أجمل بشئ آخر • فكرة مثلا ، فكل ما أريد أن أظهر به
أراهن عليه • وان أكون جميلة أمر مطلوب • لذا سأكون جميلة •
وحلوة • حلوة ، مثلا ، فى عيون الأسرة • فى عيون الأسرة وحدها •
هذا كل ما يريدونه منى • وما يمكن أن أغدوه ويصدقونه • يصدقون
أننى ساحره كذلك • وبمجرد أن أصدق هذا • فسوف أحدث
تأثيرى لمن يرانى • ويرغب أن أكون متفقة مع ذوقه • وأعرف ذلك
أيضا • وينبغى أن أكون فاتنة رغم اصابتنى بالهلع من وفاة أخى •
ففى الموت هناك شريك واحد هو أُمى • وأردد كلمة « فاتنة » وكأننى
أنطلق بكلمة جامدة حول الأطفال •

لقد تم تحذيرى من عدة أشياء • أعرف أن هذه ليست الملابس
المناسبة التى ترتديها النساء الأكثر أو الأقل جمالا • دون الأخذ

فى الاعتبار ما يتمتعن به من فتنة أو ثمن المساحيق أو أسعار الحلى .
أعرف ان هناك بعدا آخر للمشكلة . لكننى لا أعلم مكانها بالتحديد .
أعرف انها ليست موجودة هناك حيث تؤمن بها النساء ؛ فانظر
الى النساء فى شوارع سايجون . وفى مكاتب البورصة . وأرى
نساء بالغات الجمال . وذوات بشرة ناصعة البياض . يولين
بشرتهن عناية خاصة . وبالذات فى مكاتب البورصة . لا يعملن
شيئا سوى الاحتفاظ بأنفسهن جميلات ، يحافظن على أنفسهن من
أجل العشاق والأجازات فى أوروبا خاصة إيطاليا . فى إجازات
العمل الطويلة . التى تستغرق ستة أشهر كل ثلاث سنوات . هناك
يمكنهن الحديث عما يلور هنا . عن هذا الكيان الاستعماري البالغ
الخصوصية . عن هؤلاء الناس ، وصبية المحلات ، وكم هو رائع
الحديث عن الخضرة والحفلات والفيللات البيضاء الكبيرة ، التى
يسكنها الموظفون العامين فى المكاتب البعيدة . ترتدى النساء
ملابسهن . بلا سبب . تتبادلن النظرات فى ظلال هذه الفيللات .
يتبادلن النظرات حتى وقت متأخر من الليل . ويعتقدن أنهن يعشن
وقائع رواية . دواليبهن الكبيرة مليئة بالفساتين ولا يعرفن ماذا
يفعلن بها . قمن بجمعها عبر الأيام . طيلة فترة الانتظار . أصاب
الجنون بعضهن . أما البعض الآخر فقد وهبن أنفسهن لخادم شاب
عليه التزام الصمت . وخوفا ان تطالهن كلمة . ففى بعض الأحيان
نسمع صوت صفة من احداهن لحادمتها . ماتت بعضهن بحسرتهن .

كثيرا ما بدا لى هذا الانتقاد النسائي لبعضهن البعض ولأنفسهن
خطيئة كبرى . . فأنا لم أكن أملك شيئا يوحى بالرغبة . فقد كن
يبحثن عن شيء يثيرهن ، يفهمن ذلك من النظرة الأولى . لذا فهن
يتمتعن بذلك خارق للماح . كنت أعرف كل هذا قبل ان أصل الى
من الرشده .

كانت هيلين لاجونيل هي الفتاة الوحيدة التي تجاوزت قانون الخطأ . ببساطة لأنها تأخرت في طفولتها .

ظللت لا أمتلك فستانا زمنا طويلا . فقد صنعت فساتينى من ملابس أمى القديمة التى كانت تطرز فيما شبه الحقائق . إنها الملابس التى كانت تصنعها أمى بواسطة دوو . المرأة التى لم تكن تترك أمى قط حتى لو عادت الى فرنسا . تعمل فى مكتب توظيف سادك حتى ولو لم يدفعوا لها . تربت دوو بين الراهبات وكانت تطرز وتصنع ثنايا الملابس ، وتطرزها بطريقة انقرضت منذ قرون بآبرة رفيعة كالشعر . لذا جعلتها أمى تطرز الملاءات . ولأنها تصنع الثنايا فقد جعلتها أمى تصنع ثنايا ملابسها . فساتين واسعة . ارتديها مثل الحقائق فتجعلنى أبدو كطفلة . طبقتين من الثنايا فى المقدمة . وياقة على طراز كلودين . أما الجونلة فمحمسورة عند الخصر . والفساتين مطرزة بفتحات كى تبدو وكأنها يدوية . ارتدى هذه الفساتين الأشبه بالحقائب وحولها أحزمة تضبطها . فتصبح شيئا أشبه بالأبدية .

فتاة فى الخامسة عشر عاما والنصف . رقيقة الجسم أو لعلها هزيلة . ذات صدر مسطح كالأطفال . باهت كالورد . كأنه أحمر شاحب ، ثم هذا الرداء الذى يمكن أن يثير السخرية فلا يضحك أحدا . أرى كل هذا مائلا . كل شيء هناك ولا شيء موجود هناك . أراه فى العيون . كل شيء موجود فى العيون . أريد أن أكتب . أخبرت أمى بهذا . اننى أريد أن أكتب . فى المرة الأولى لم ترد . ثم سألتنى : ماذا ستكتبين ؟ أجبت : كتب ، روايات . . قالت بجديّة : بعد أن تحصل على شهادة الرياضيات ستكتبين ما تشائين . فهذا أمر يهمنى كثيرا . إنها ضد الكتابة . وليس فى هذا ما يشين ، وكأن الكتابة ليست بمهنة . بل حالة من المزاح . قالت لى فيما بعد : هذه أفكار أطفال .

فتاة صغيرة ، ذات قبعة من اللباد . تقف وحدها فوق جسر
العبارة وقد انعكس الضوء على صفحة النهر . تستند على الدرابزين،
وتبدو قبعة الرجل الملون وردية في كل حالاتها . انه اللون الوحيد
الذى تعكسه الشمس التى تحرق النهر . الشمس الحارة والشاطئان
المسطحان . يبدو الشاطئ وكأنه يلاحق الأفق . ويجرى النهر
بصمت . دون ان يثير صوتا . كأنه الدم فى الجسم . فلا رياح
على صفحة المياه أما موتور العبارة ، فهو الذى يسبب الضجة الوحيدة
فى المكان . صوت التروس المتصلة للموتور . ومن وقت لآخر
تهب نسمة خفيفة . ونسمع أصوات ضجة . ونباح كلاب . تأتي
من كل مكان . . . من وراء الضنياع . ومن كافة القرى . عرفت
الصغيرة العبور منذ أن كانت طفلة . فهي تذهب دوما الى أرض
كمبوديا . وتردد الصغيرة : اننى بخير . وحول العبارة يتحرك النهر.
على مستوى الضفاف . وتتموج مياهه عابرة المياه الراكدة فوق
حقول الأرز . فلا تختلط بها أبدا . تزيج أمامها كل ما يمكنها ان
تقابله فى نهر التونلساب الواقع فى غابات كمبوديا . تزيج كل
ما يعترض طريقها من قش وأخشاب ، ونفسايا وحرائق مطفأة ،
وطيور ميتة ، وكلاب نافقة . ونمور ، وثيران وغرقى . وجثث
الموتى ، وقطع اللحم ، وجزر من أزهار الياقوت ومياه جيلاتينية .
ويزحف كل هذا ناحية المحيط الهادى . لا شئ لديه وقت للجري .
فكل الأشياء تحملها عواصف الأعماق الهوجاء من تيار النهر الداخلى
ويبقى كل شئ معلقا فوق السطح بقوة النهر .

أخبرتها أننى أرغب فى الكتابة قبل أى شئ آخر .
لا شئ سوى الكتابة . بدت غيرة . ولم ترد . وبمنظرة دائرية
سريعة هزت كتفها بلا مبالاة ، شئ لا ينسى . كنت أول من رحل .
وكان على أن أنتظر بضع سنوات حتى تفتقدنى . حتى تفقد هذه

الطفلة . أما الأولاد فلا خوف عليهم . لكن هذه الفتاة . سوف تعرف يوما ، وسترحل وسيتمكنها التحرر . أولا في فرنسا .

قال لها مدير المدرسة الثانوية : ابنتك يا سيدتى . هى الأولى فى فرنسا ، لم تعلق أُمى بشيء . . لم تحس بالسعادة لأن أبناءها هم أول من رحلوا الى فرنسا . وتساءل أُمى حبيبتي : والرياضيات . فيكون الرد : لم يحزن الوقت بعد . سوف يأتى الوقت . فتساءل أُمى : متى سيحدث ؟ فيكون الجواب : عندما تريد ذلك يا سيدتى .

وتقف أُمى بقيافتها المضحكة اللامعقولة . وبجوربها القطنى الذى غزلته دوو ، تعتقد أن على السيدات فى مناخ مدار السرطان أن يرتدين الجوارب خاصة بالنسبة للسيدة مديرة المدرسة مثلها . أما فساتينها فقد بدت مثيرة للسخرية وقد بدت غير مهندمة . فما تزال دوو هى التى تطرزها . أتت بها مباشرة من مزرعتها التى يسكنها أبناء عموماتها . فتظل تستخدم هذه الملابس الى أن تهترى تماما . تعتقد أنها يجب ان تستفيد من أحذيتها ، أحذيتها التى بليت ، فتسير بها فى كل مكان وخلفها كلب صغير . وقد سحبت شعرها وضمته فى جديلة على الطراز الصينى . مما أثار فى أنفسنا الخجل . يظهر هذا الخجل فى الشوارع الذى أمام المدرسة . وعندما وصلت المدرسة فى سيارة طراز ب ١٢ تطلع اليها كل الناس . لكنها لم تلاحظ شيئا . وكأنها عزلت نفسها عنهم . حاولت أن أثير انتباهها . فنظرت الى وقالت : ربما لأنك تسحبين شعرك ليل نهار . بطريقة جامدة . وهذا شيء لا يجب حدوثه . يجب ان نخرج من هذا المكان الذى نحن فيه . .

وعندما وصلت وأُمى الى هذا الحد من الحديث . أحست باليأس . واكتشفت اننى أرتدى قبعة للرجال ورأت حذائى المديب فسألتنى عنهما . فأجبت لا شيء تطلعت الى . وبدأ وكأن هذا

يعجبها • فابتسمت وقالت انه لا بأس بهذه الأشياء وانها لن تجعلني
أبدو سيئة وان الأمر سوف يتغير • لم تسألني هل اشتريتها •
فهي تعرف مصدرها • وتعرف أنها صالحة ، صالحة لعدة مرات •
لذا فهي لا يمكن ان تكون ضدنا • قلت لها : على كل ، فهي ليست
غالية • فلا عليك • سألت عن مكان ابتياعها • فقلت : اشتريتها
من شارع كانيتا • في تصفية للتصفيات • ونظرت الى بمودة •
لعلها رأت ان هذا دليل طيب على صحة خيال طفلة صغيرة • تتصرف
كما تشاء بهذا الأسلوب • ليس هذا فقط • بل باركت هذا
التهريج ، وهذه المخالفة ، وتصرفت كأرملة ترتدى الألوان الرمادية •
وكأنها تترك فترة الحداد ، وتبدو هذه المخالفة وكأنها تعجبها •

يبدو الفقر أيضا في قبعة الانسان ، لأنه يجب على المنزل
ان يدبر الأموال التي تلزمه بطريقة أو بأخرى ، فمن حولها الأشياء
تغزو الأولاد القصر الذين لا يعملون شيئا • والأرض موحلة •
وستظل النقود ناقصة ، لذا ، فعلى الصغيرة أن تبقى هنا كي تنمو
وسوف تعرف يوما كيف تأتي بالنقود الى هذا المنزل • ولهذا السبب
كانت أمي تسمح لطفلتها بالخروج مرتدية هذه الملابس التي
لا ترتديها سوى امرأة عاهرة • ولهذا أيضا فان الطقلة تعرف كيف
تتصرف • فتحول الانتباه عنها • لأنها ترتديه بدافع الحاجة الى
المال • وقد أضحك هذا الأم كثيرا •

لم تمنعها الأم ان تفعل ذلك طالما ان هذا يوفر المال • تقول
الطفلة : طلبت منها خمسمائة قرش من أجل العودة الى فرنسا •
تردد الأم ان هذا شيئا حسنا • وهو مبلغ يكفي للإقامة بباريس •
ثم تعلق : ستذهبين والخمسمائة قرش • وتحسب الصفقة • ثم
سترضخ الأم لما ستفعله ابنتها • فاذا سيطر الشر على الفكر فلن
يكون سوى الارهاق •

فى كتبى الروائية التى تتحدث عن طفولتى ، لم أذكر أشياء كثيرة عما كنت أتجنب قوله . وما قلته . أعتقد أننى قلت ان الحب نكتة لأمھاتنا ، ولكننى لا أعرف هل تحدثت عن الحق الذى نكنه أيضا . والحب الذى نشعر به تجاه شخص أو آخر . فالحقد شىء مرعب . وفى الحكايات العديدة من الانهيار والموت التى كانت تحدث فى أسرنا ، كانت هناك قصص حب وقصص حقد . والتى تناقلت بصورة متتابعة . فاخترت فى أعماق جسدى ، عمياء كمولود جديد فى يومه الاول . وعلى عتبتها يبدأ الصمت . كل ما حدث ، بشكل محدد ، هو الصمت ، وهذا العمل الرتيب فى كل حياتى . فمازلت هنا . أمام هذه الطقولة المحسوسة . على نفس المسافة من الغموض ، الذى لم أكتب عنه قط . مؤمنة اننى يمكن أن أفعل ذلك يوما : لكننى لم أفعل شيئا أبدا سوى الانتظار أمام الباب المغلق .

عندما وقفت فوق عبارة نهر الميكونج ، فى يوم سيارة الليموزين الداكنة ، لم تكن أمى قد غادرت حافة السد . ومن وقت لآخر . تسير فى الطريق مثلما كانت تفعل فيما قبل ليلا . حيث كنا نذهب معها : نحن الثلاثة دائما لقضاء بضعة أيام . ونبقى هناك فوق العبارة . أمام جبل سيام ثم نعاود الرحيل . لم يكن أمامها شىء تفعله ولكنها تعود اليه . نطل أنا وأخوتى على مقربة منها فوق العبارة أمام الغابة . أصبحت الآن كبيرة . فنستحم كثيرا فى المرفأ . ولا نذهب لصيد الفهود السوداء فى مستنقعات المصببات ، لا نذهب الى الغابة . ولا الى القرى حيث تزرع أشجار الفلفل الأسود . لقد كبر كل شىء حولنا . ولم يعد هناك أطفال يركبون الثيران ولا فى أماكن أخرى . أحسنا ، أيضا ، بالغربة ، ببط شديد مثلما أحسنا أننا . لم نتعلم شيئا سوى التطلع الى الغابة . وأن ننتظر . وأن

نبكى . فقد ضاعت أراضي الفقراء تماما . وقام الخدم بزراعة قطع صغيرة من سطح الأرض . حيث ينمو الأرز . ويعيشون هناك بسلا مورد يذكر ، يستغلون الأكواخ التي شيدتها أمي . يحبوننا وكأننا أعضاء في أسرهم . يتصرفون وكأنهم يحتفظون بحبات البنغل . يحتفظون به فعلا . فالفقراء لا يتركون شيئا في أطباقهم ورغم ذلك فإن أثاث كوخهم نظيف . أما البنغل فيبدو نقيا أشبه برسم جميل تراه وأنت على الطريق ، أما البيوت فمفتوحة طيلة اليوم كي يمكن للرياح أن تمر وتجفف الأخشاب وفي المساء يغلقونها في وجه الكلاب المضالة أو في وجوه لصوص الجبال .

وكما كتبت ، فقد تذكرت يوما وأنا في مقصف ريام ، بعد أن تركت المكان بعامين أو ثلاثة أعوام ، لقائي بالرجل الثرى صاحب السيارة الليموزين السوداء . تذكرت ذلك اليوم الذي أحكى عنه وسط الضوء المنبعث من الضباب والجو الحار .

فبعد عام ونصف . عادت أمي الى فرنسا في صحبتنا . وباعت كل أثاثها ثم ذهبت عند الحزان لآخر مرة . جلست فوق الغبارة تترقب الغروب . وتطلعت من جديد الى جبل سيام لآخر مرة . تعرف أنها لن تفعل ذلك قط فيما بعد . حتى لو غادرت فرنسا من جديد ، أو حتى لو غيرت رأيها . ثم عادت الى الهند الصينية من جديد . كي تنسحب الى سايجون . تعرف أنها لن تقف قط أمام هذا الجبل . أمام هذه السماء الصفراء . . . وتلك الغابة الخضراء .

أجل ، كما أقول ، فمهما كان تأخرت الأمور في حياتها . فعليها أن تبدأ من جديد . وسوف تؤسس مدرسة للغة الفرنسية . مدرسة فرنسية جديدة ، تمكنها أن تدفع جزءا من مصاريف دراستنا وان تحتفظ بابنها الأكبر الى جانبها فيما بقي لها من العمر .

مات الأخ الأصغر عقب مرض صدرى استمر ثلاثة أيام . لم
يحتمل القلب . كنت قد تركتهم فى تلك الفترة . حدث ذلك ايان
الاحتلال اليابانى . وانتهى كل شىء فى هذا اليوم . لم أطرح عليها
أسئلة قط عن هذا اليوم . ولا عن طفولتها أو عنها . ماتت أمى
بالنسبة لى يوم أن مات أخى الأصغر . وحدث هذا أيضا مع أخى
الأكبر . لم أستطع تجاوز الرعب الذى اجتاحتنا فجأة . ولم يعد أى
منهما يهمنى كثيرا . ولم أعرف شيئا عنهما عقب ذلك اليوم . لم
أعرف كيف نجحت فى دفع ديونهما الى الدائنين الذين توقفوا فجأة عن
الحضور . رأيتهما جالسين فى قاعة سبادك الصغيرة . يرتدون
تنورات بيضاء . ظلوا هناك دون أن ينطق أحدهما منهم بكلمة . لقد
ظللنا نسمع أمى تبكى طوال شهور وسنوات ، وهى تسبهم . لزممت
عرفتها ولم تود الخروج اليهم . ولم تصرخ فيهم أن يتركوها فى
حالتها . رنا عليهم الهدوء وهم يبتسمون . بقوا هناك ثم غادروا
المكان ولم يأتوا قط بعد ذلك . لقد ماتوا جميعا : أمى وشقيقاى .
وأیضا ذكرياتى معهم ، وتقدم بى الزمن ، والآن لم أعد أحبهم كثيرا .
لا أعرف هل كنت أحبهم حين تركتهم . لم يعد فى رأسى شىء عن
روائع بشرتهم . . ولم أعد أرى بعينى ألوان عيونهم . ولم أعد
أتذكر أصواتهم . عدا أنه تهب نسمة رقيقة ، أحيانا ، عندما يطل
المساء : لم أعد أسمع ضحكاتهم ولا أصواتهم . انتهى كل شىء .
ولم أعد أتذكر شيئا . ولذا أكتب الآن عنهم بسهولة . فقد مر زمن
طويل . . زمن سحيق بعيد . وأصبحت خلاله كاتبة غزيرة الانتاج .

كان عليها أن تبقى فى سايجون بين عامى ١٩٣٢ و ١٩٤٩ .
وفى ديسمبر ١٩٤٢ مات أخى الأصغر ولم تستطع المرأة ان تغادر
المكان الى بقعة أخرى . ظلت هناك على مقربة من مقبرته كما تقول .
ثم انتهت بالعودة الى فرنسا . عندما التقينا ثانية كان ابنى قد
بلغ الثانية من العمر . بدأ الوقت متأخرا لمثل هذا اللقاء . أدركت

ذلك عند النظرة الأولى . لم يعد هناك شيء مشترك بيننا . فقد أتى ابنها الأكبر على البقية الباقية من حياتها . ذهبت لتعيش وتموت في « لواشيه » بمبنى مبنى على طراز قصر لويس الرابع عشر . أقامت مع دوو . كانت تخاف ، أيضاً ، من الليل . فاشتريت بندقية ، جلست دوو تترقب في الغرف المسقوفة بالطابق الأخير من القصر . كما اشترت مسكناً لابنها الأكبر قريباً من امبواز . تحوطه الغابة حيث عليه أن يقوم بقطع الأخشاب ، إلا أن أخى كان يذهب ليلعب القمار في نادى البكاراه بباريس . وراحت الأخشاب في ليلة واحدة هناك حيث تلتوى الذكريات بغثة . وحيث يدخل أخى مصحوباً بدموعه . يخبرها أنه خسر نقود الخشب . كل ما أذكره أننا عشنا عليه نائماً في سيارته ، في مونبارناس ، أمام مبنى الأكاديمية الفرنسية . وأنه أراد أن يموت . لم أعد أعرف شيئاً بعد ذلك ، عما فعلته معه . فهي تتصرف دائماً بما يثير الدهشة من أجل ابنها الأكبر الذى لا يعرف شيئاً في عرف أمه . الطفل الذى بلغ الخمسين من العمر . والذى عندما أراد أن يكسب نقوداً ، اشترت له مفروخة دواجن كهربائية . ووضعتها في الصالة الكبيرة وأصبح لديها ، فجأة ستمائة فروج أربعمائة متر مربع من الفراريج . لكنه فشل في إدارة ذوى العروف الحمراء ولم ينجح في توفير الغذاء للستمائة فروج ذوى المناقير التى لا تشبع أبداً . ولا تنغلق عن الطعام . فنفقوا جميعاً من الجوع . ولم تتكرر التجربة مرة ثانية . حضرت الى القصر أثناء فقس الفراريج . وبدأ كأن هناك حفلاً . حيث فاحت روائح الفراريج النافقة وانغذيتها . لم أعد أستطيع أن أكل في القصر . أنا وأمى دون أن نتقياً .

ماتت أمى بين دوو وما تسميه طفلها المدلل في غرفتها الكبيرة بالطابق الأول ، الذى كانت تضع فيه الخراف النائمة . من أربعة الى ستة خراف حول سريرها في فترة الكمون أثناء فصول الشتاء الطويل . آخر الفصول التى عاشتها .

هناك ، فى منزلها الأخير ، فى منطقة اللوار • انتهى كل شىء
من مرواحها ومجيئها للذين لم يتوقفا وحلت نهاية كل أمور هذه
الأسرة • أرى ، هناك ، الجنون سافرا للمرة الأولى • أرى جنون
أمى جليا ، وأرى أن دوو • وأخى كانا سببا لصابتها بالجنون •
أما أنا ، فلا ، لم أكن قد رأيتها قبل ذلك بفترة • ولم يسبق أن
رأيت أمى فى حالة مماثلة لهذا الجنون • رغم أن الجنون كان ،
منذ ولادتها ، ساكنا فى دمها • لم تكن مريضة بالخبل ، بل عاشت
الجنون فى صمتها • بين دوو وابنها الأكبر ، دون أن يكون هناك
شخص آخر بينهما كى يمكنه أن يشهد ذلك • رغم أن لديها العديد
من الأصدقاء • الذين احتفظت بهم سنوات طويلة • يتجددون
دائما • وإنما هناك شباب من الوافدين على وظائف البورصة ، وفيما
بعد انضم اليهم ناس من سكان تورين ؛ ومن بينهم العائدون من
المستعمرات الفرنسية • جمعت حولها ناسا من كافة الأعمار ،
معجبين بذكائها وحيويتها وبهجتها وتلقائيتها التى لا تقارن أبدا
ولا كثير مللا •

لا أعرف من التقط تلك الصورة التى تعبر عن اليأس • تلك
التي التقطت فى فناء منزل هانوى • يظهر أبى فى الصورة لآخر
مرة • فبعد بضعة أشهر رحل الى فرنسا لأسباب صحية • وقبل
ذلك غير وظيفته وعين فى بنوم بنه ، فى هذا المنزل العجيب الذى
يطل على نهر الميكونج • قصر قديم كان يسكنه ملك كمبوديا •
وسط هذه الحديقة المفزعة • التى تبلغ مساحتها عشرات الهكتارات •
هناك كانت أمى تصاب بالهلع • فالليل يخيفنا • لذا كنا ننام نحن
الأربعة فى سرير واحد • تردد أنها خائفة من الليل • وفى هذا
المنزل علمت ب وفاة أبى • علمت قبل وصول البرقية • فى الليلة
السابقة على رحيله • بادرة واحدة جعلتها تحس أنها الوحيدة التى
رأت وعرفت وسمعت • هذا الطائر الذى سمعته يشن مجنونا وسط

الليل ، ضائعا في المكتب الذي يقع في الطرف الشمالى للقصر .
أحسست أنه أبى . هناك أيضا بعد أيام من وفاة زوجها ووسط الليل
وجدت أمى نفسها أمام صورة أبيها . أبوها هي أضواء الأنوار .
رأته هناك يقف قريبا من المائدة . منتصباً فى القاعة الكبرى المشمسة
الزوايا ينظر اليها . أذكر صرخاتها . أيقظتنا بنداءاتها . قصت
علينا الحكاية . كيف كان يرتدى ملابس يوم الأحد الرمادية .
وكيف كان يقف ، ونظرته المثبتة عليها . قالت ناديته مثلما كنت
أفعل وأنا صغيرة . قالت : لم أخف . هرولت نحو الصورة التى
سرعان ما تلاشت . لقد مات الاثنان فى نفس التاريخ . وصدق
عصفور ساعة الحائط ، وتحركت الصورة . وتملكتنا الدهشة التى
ورثناها عن أمنا ، ازاء كل شيء . ومن بينها الموت .

نزل الرجل الأنيق من السيارة الليموزين ، يدخن سيجارة
انجليزية ، ينظر الى الفتاة الشابة ذات القبعة الرجولية والحذاء
الذهبي . تقدم نحوها فى بطء من الملاحظ أنه أكثر جرأة . لا تسفر
شفته عن أى ابتسامة . بدأ بأن مد لها سيجارة . يدها ترتعدان .
فهناك اختلاف فى العنصر . فهو ليس برجل أبيض . ولأنه يجب
أن يتفوق عليها . فقد ارتعد . أخبرته أنها لا تدخن . « شكرا »
لم تضيف المزيد . لم تقل له دعنى فى حالى . أصبح أقل خوفا .
حدثها انه تصور أنه فى حلم . لم ترد . فهي ليست مستعدة للرد ،
فيما تجيب . انتظرت . فسألها : من أين أنت ؟ أخبرته انها ابنة
مدرسة البنات بسادك ، فكر ، ثم قال انه انتظر طويلا كى يحدث
هذه المرأة ، أمها ، وعن حظها السيئ فوق هذه الأرض المستعمرة
التي اشتريتها فى كمبوديا . أليس كذلك ؟ نعم هو كذلك .

كرر عليها أنه لأمر غريب أن يراها فوق العبارة ، فى وقت
مبكر من الصباح فتاة صغيرة وجميلة مثلها . أنت لا تعرفين قيمة
نفسك ، هذا أمر غير متوقع ، فتاة صغيرة فى عربة لا تليق بمقامها .

حدثها أن القبعة جميلة ، بل انها بالغة الجمال ، وأنها • •
فريدة في نوعها • قبعة رجل ، ولم لا ؟ انها حلوة جدا • فهي
يمكن ان تتيح لها التصرف بتلقائية •

نظرت اليه وسألته من هو ؟ • أخبرها أنه عائد من باريس •
حيث كان يدرس ويقيم هناك ، في منزل يطل على النهر مباشرة •
منزل كبير في مواجهة توجد أراض فسيحة وله درابزين من
السيراميك الأزرق • سألته من هو ؟ • أجابها انه صيني وان أسرته
من شمال الصين • من مقاطعة فوشوان ، « هل تسمحين لي أن
أصحبك الى منزلك في سايجون ؟ » وافقت • أمر السائق أن يأخذ
الحقائب من الفتاة الصغيرة من سيارة الأجرة وأن يضعها في سيارته
السوداء •

صيني • اذن فهو من الأقلية البيضاء ذات الأصل الصيني التي
تملك غالبية العقارات السكنية بالمستعمرة • وفي ذلك اليوم كان
متوجها الى سايجون •

دخلت السيارة السوداء ، وأغلق الباب ، أحست ، فجأة ،
بتوتر ، وتعب • ورأت الأضواء المنعكسة فوق صفحة النهر ،
وأحست أنها تكاد أن تصاب بصمم خفيف في أذنها • بينما يعم
الضباب المكان •

لن أقم قط برحلة سفر في سيارات المستوطنين • ومن الآن
فصاعدا • أصبحت لي سيارة ليموزين • تذهب بي الى مدرسة
الليسيه وتعيدني الى مسكني ، أتناول غدائي في الأحياء الراقية
بالمدينة ، وأصبح لدى كل ما أقدم على فعله وأتحرك في اطاره •
وما أنا له من الخير والشر ، سيارة ، وسائق سيارة. أضاحكه ،
فراح زمن العواجيز اللائي يجلسن خلفي في سيارات الأجرة وهن

يُمضغن اللبان ، والأطفال ، الذين يحملون الأمتعة . وأسرة سادك ، والرعب الذى يستولى على أسرة سادك . وصحتها الذى يصل الى حد اثاره الجنون .

تكلم ، قال انه أحس بالملل من باريس ، ومن الباريسيات الحسناوات ، ومن حفلات الاستقبال والزفاف ، ومن القنايل . . آه . . وأيضا من مبنى الكوبول (الأكاديمية الفرنسية) ، ومن أسطح المنازل ذوات القباب المستديرة . أما أنا فأفضل القباب المستديرة ، وعلب الليل . وهذا الكيان « المدهش » الذى عاشه طيلة عامين . استمعت بانتباه شديد الى خطابته الذى القاه حول الثراء . لم يكن ينقصه الدليل أن يقول ان رصيده يبلغ الملايين . استكمل حكايته وقال ان أمه ماتت ، وهو طفل . طفل وحيد . لم يعد له سوى أبيه الذى يملسه دائما بالنقود . لكن أتعرفين من هو . انه مشغول دائما يغليون الأفيون ، يدخنه طوال عشر سنوات وهو يجلس أما النهر . أدار ثروته منذ نعومة أظافره . علقمت أنها تلاحظ ذلك جيدا .

هذا الأب سيرفض ، بلا شك ، أن يتزوج ابنه من عاهرة بيضاء صغيرة تعمل أسرتها فى ادارة سادك .

بدت ملامح الصورة قبل ان يلمس الطفلة البيضاء ، وهى مستندة الى أحبال العبارة ، وفى اللحظة التى نزل فيها من سيارة الليموزين السوداء . وعندما بدأ فى الاقتراب منها . عرفت وأدركت أنه خائف .

عرفت كل شيء منذ الوجهة الأولى . عرفت أنه يستحق الشكر ، ومن ناحية أخرى فهى أيضا تستحق الشكر لأنها أتاحت له الفرصة . فهى تعرف ، أيضا ، شيئا آخر . ومن الآن فصاعدا سيصبح الزمن فى صفها . فلا يمكنها الفرار من بعض الحقائق

الواجبة ازاء نفسها . وعلى هذا فيجب الا تعرف الأم شيئا . وأيضا أخوتها . أدركت ذلك منذ اللحظة الأولى . عندما قبلت ان تتركب السيارة السوداء . لقد عرفت . وأحسست ان مسافة بعيدة تفصلها عن هذه الأسرة للمرة الأولى ، وربما للأبد . فيجب ألا يعرفوا ما يحدث معها . والا أمكنهم ان يمسكوا عليها شيئا . وسيضغطون فوق كاهلها . وسيضعون ثقلا فوق جرحها . وهذا سيفسد الأثر . لذا يجب ألا يعرفوا ، لا أمها ولا أخوتها . سوف تتصرف على هذا المتوال . لذا بكت وهي داخل سيارة الليموزين السوداء .

كان يوم خميس ، بدأ في الحضور يوميا لمرافقتها عقب خروجها من المدرسة ليصحبها الى البنسيون ، وفي أحد أيام الخميس ، أيضا ، اصطحبها من البنسيون في سيارته السوداء الى مكان آخر . . . في ضاحية شولن . . .

سارت بهما السيارة تخترق الطرق الواسعة التي تربط المدينة الصينية بوسط مدينة سايجون . هذه الطرق البالغة الاتساع على الطراز الأمريكي . تخترقها عربات الترام والمركبات ، والسيارات . كان الوقت مبكرا ، بعد الظهيرة مباشرة . وكانت سعيدة لأنها استطاعت الافلات من نزهة اجبارية مع بنات البنسيون .

وهناك ، ذهبا الى حجرة صغيرة في جنوب المدينة . في أحد الأحياء الحديثة . المشيدة على أحدث طراز معماري . حيث العمارات الفخمة العالية . قال لها : لا أحب ركوب العبارات . عندما دخلت الحجرة كان المكان مظلمًا لم تطلب أن يفتح النوافذ المغلقة . لم يخالجها شعور محدد . فهي بلا حقد ، أو استنفار . لكن هناك شيء تجهله تماما من قبل . أحسست بشيء يتأبها عندما قال لها مساء أمس انهما سيذهبان هناك حيث يجب ان يكونا . لمسها . فسرت

فيها رعشة بسيطة من الخوف . أحس أن هذا شيء يتفق مع ما تنتظره منه . وأن هذا الشيء يجب أن يحدث في مثل هذه الأمور . حالتها . وبدأت شديدة الانتباه لما يحدث في الخارج إلى ضوضاء المدينة بالغرف الأرضية . أما هو فوقف يرتجف . نظر إليها . كأنه ينتظر أن تتكلم . لكنها لم تتكلم . أما هو فلم يتحرك من مكانه . قال إنه يحبها بجنون . قال ذلك بصوت خفيض . ثم سكت . لم ترد عليه . ورغم أنها في استطاعتها أن تخبره أنها لا تحبه . لكنها لم تقل شيئاً ، أدركت ذلك ، فجأة ، وبالفريزة . أحست أنه لا يعرفها جيداً . وأنه لن يعرفها قط . وأنه لا يمتلك الوسيلة للتعرف عليها . بل وأنه سوف يجرب آلاف الطرق الملتوية من أجل النيل منها . لكنه لن يبلغ ذلك قط . وعليها أن تعرف ذلك . بل أنها تعرف . فقد بدا لدى جهله بها . أحست فجأة أنه أعجبها ، وأنها أعجبته وأن الأمر يتعلق بها ، بها وحدها .

قالت له : أفضل ألا تحبني أبداً . حتى إن كنت تحبني . فأننى أريدك أن تتصرف مثلما تفعل مع بقية النساء . نظر إليها منذهشاً . وسألها : هل هذا ما تريدين ؟ ردت بالإيجاب . وبدأت المعاناة . فهما في هذا المكان لأول مرة . وهو لم يكن عليها حتى الآن خاصة فيما يتعلق بهذه النقطة . أخبرها أنه يعرف أنها لن تحبه أبداً . تركته يتكلم . في أول الأمر أخبرته أنها لا تعرف ثم تركته يتكلم .

أخبرها أنه إنسان وحيد . وحيد بصورة موحشة . مع هذا الحب الذى يكنه لها . قالت أنها أيضاً وحيدة . لكنها لم تقل كيف . قال : لقد تبعته إلى هنا مثلما تتبعين أى شخص . أجابت أنها لا يمكن أن تعرف . وأنها لم تذهب أبداً مع أى شخص إلى غرفته ، أخبرته أنها لا تريده أن يتكلم معها . وأنها تريده أن

يتصرف مثلما اعتاد مع النساء اللاتي يأتى بهن الى غرفته . ثم
توسلت اليه ان يتصرف بهذا الاسلوب .

استدار الى الناحية الأخرى من السرير وأجهش . وبسط
وبتؤدة جذبته نحوها .

أغلقت عينيها . فتسلل بخفة حتى لا يضايقها .

كان ذا بشرة رقيقة . ملساء . أما عن جسده ، فالجسد
نحيف ، بلا حول أو قوة . وبلا عضلات . لعله مريض . وفى حالة
نقاها . انه بلا شعير فى جسمه . انه بالغ الضعف . معاناة
شديدة . لم تتطلع الى وجهه . ولم تنظر اليه . لمسته . لمست
بشرته الرخوة . وداعبت شعره الذهبى فبكى . انه فى حالة حب
غير مكتملة .

وبينما هو يبكى ، أحس بالألم . وعقب هذا الألم الذى تملكه
أحسست بالتغير . فنزعت نفسها من الجو الذى وجدت نفسها فيه .
وبدا شديدا الارتباك . .

وأحسست أن هذا الخضم العنيف من البحر . . لم يسفر عن
أى شئ .

لم تتضح لها الصورة الأولية عنه فوق العبارة ، سوى فى
هذه اللحظة .

صورة امرأة ذات جوب مرتق عبر الغرفة . وبلت أخيرا
كطفلة . يعرفها الضبية جيدا . لم تنضج بعد . لم يتكلموا معا عن
الأم . ولا عن معرفتهم بهذه الأمور التى تجمعهما وتفرقهما . عن
هذه المعرفة المجدودة . ولا عن طفولة الأم .

فلا شك ، أن الأم لم تعرف المتعة قط .

سألني ان كان قد أصابني مكروه . فأجبتة بالنفي . قال
انه سعيد بهذا .

تساءلت كيف واثقني القوة أن أسير في عكس الممنوع الذي
فرضته أمي وسط هذا السكون . وهذا التحديد . لم أستطع أن
أصل الى أطراف هذه الفكرة .

تبادلنا النظرات ، سألني لماذا جئت معه . قلت انه كان
يجب أن أفعل ذلك . وكان هذا أمرا حتميا . أنها المرة الأولى التي
تتكلم فيها . حدثته عن وجود شقيقى . أخبرته اننا نفتقر الى
المال . كان يعرف أخى الأكبر ، التقىاه فى الأماكن المخصصة
للتدخين فى المكاتب . قلت ان هذا الأخ سرق أمي كى يدخن .
وأنه يسرق الخدم . وأحيانا يسرق مديري المداخن الذين يأتون
لإعطاء المال لأمي . حدثته عن أحوالنا المالية . وأخبرته أن أمي
ستموت اذا ظلت الأمور على هذا الحال . وان الموت قريب الطرف
من أمي . وأن ما حدث لى اليوم قد يعجل بموتها .

رثى لحالى . سألني ان كنت أرغب فيه . فأجبتة بالنفي .
وأثنى لست محل رثاء . وأن أحدا لم يرث لحالى سوى أمي . قال
لى : لقد جئت لأن معى نقودا قالت اننى أرغب فيه أيضا فضلا عن
أمواله . منذ أن رأيته فى هذه السيارة . ومع هذه التصريحات
لم أستطع أن أعرف ما يمكن ان يحدث لى من ناحية أخرى . قال لى :
أريد أن أصحبك . وأن أرحل معك . قلت : لا أستطيع فالوقت
لم يخن كى أترك أمي . خاصة أنها تكاد أن تموت من الألم . قال
انه قرر ألا يجرب حظه معى . ومع هذا سوف يعطينى نقودا . وعلى
ألا أقلق . وتمدد مرة ثانية . ومن جديد ران صمت .

تسربت الينا ضوضاء المدينة البالغة الحدة . أذكرها الآن أشبه

بصوت عال في شريط سينمائي ، يكاد يصم الآذان . أذكر جيداً
كم كانت الحجرة مظلمة . التزمنا الصمت . تحوطنا ضوءاء المدينة
التي لا تتوقف . تتسرب من المدينة . من قطار الضواحي عبر
النوافذ التي تحطم زجاجها . ليس بها سوى الستائر والنوافذ
الخشبية . ومن خلال الستائر نرى الناس يمرون بظلالهم عبر
الأرصعة . هذه الحشود المزدحمة المتدفقة دوماً . وتتسلل الظلال
بشكل منتظم عبر فتحات « الشيش » المغلق . وقرقعات القباقيب ،
كأنها تفقد الرؤوس صوابها . حادة بأصواتها . فالصينيون ينطقون
لغتهم دائماً ، كما تخيلت ، وكأنها لغة مصنوعة من الصحراء .
لغة عربية بشكل مثير .

انتهى اليوم في الخارج . عرفنا ذلك من خلال الضوء التي
يحدثها المارة الذين يتزايدون ويضطرد اختلاطهم معا . انها مدينة
المتعة التي تعج بأبنائها طيلة الليل . حيث يبدأ الليل مباشرة عقب
غروب الشمس .

يفصل السرير عن المدينة من خلال هذه النافذة التي تحجب
الصوت . وستائر من القطن . ولا توجد أية حواجز صلبة تفصلنا
عن هؤلاء الناس . فهم يجهلون وجودنا ، أما نحن ، فنلاحظ كل
شيء . يتعلق بهم . أصواتهم العالية . وتحركاتهم . وكأنها تغير
سيارة يطلق نداءات متقطعة ، حزينة ، لا رجع لصداها .

تسربت الى الغرفة روائح الحلوى . رائحة فستق محمص
والحساءات الصصيتية ، واللحوم المشوية ، والأعشاب وأزهار
الياسمين ، والغبار ، والبخور . وروائح احتراق الفحم النباتي .
وانتقلت روائح النيران بين السلالم . وكأنها تباع في الشوارع
فتبدو رائحة المدينة أشبه بروائح القرى التي يباع فيها الجبن .
ورائحة الغابات .

رأيت ، فجأة ، يجلس في المقصورة الداكنة ، يحتسى الويسكى ،
ويدخن أخبرني أن النوم غلبني ، وأنه انتهز هذه الفرصة كي
يسبتهم . أحسست بالنعاس ، فاشعل مصباحا فوق المائدة الواطئة .

انه رجل له عاداته ، يحب أن يأتي دائما الى هذا المكان .
رجل يحب ممارسة الحب بشكل دائم ، رجل خواف وعليه ان يمارس
الحب كثيرا من أجل قهر الخوف . أخبرته أنني أحبذ أن يكون
بصحبتة نساء كثيرات . وإن آكون من بين نساءه اللاتي وقعن في
طريقه . تبادلنا النظرات ، وفهم ما قلته . تبدلت النظرة فجأة
وأصبحت زائغة ، يكسوها الشر ، والموت .

طلبت منه أن يأتي الى . وأن علينا أن نعاود الكرة مرة
أخرى . . جاء . كان يحس بالمتعة وهو يدخن السيجارة الانجليزية .
ثم ينبعث دخانه الكثيف . أحس بالكسل وبقوة بشرته فوق الفراش
الحريري . وبالتسبيخ الحريري الهندي المرصع بالذهب . شعر أنه
رجل مرغوب . طلب مني أن أنتظر بعض الوقت . كلمتي وقال
انه عندما رأي أول مرة ، عند عبور النهر ، أحس أن شيئا سيحدث
بيننا ، وأنه سيصبح حبي الأول . قال أنه عرف آنذاك أنني
أحببته . قال ان ذلك ، بالنسبة له ، يشكل أداة خاصة للحزن .
أما أنا فقد شعرت بالسعادة لكل ما قاله . وأخبرته بما أحس .
الا أنه أصبح جافا . وصدمني أحساسه باليأس . فجأة رمى نفسه .
وتأوه . وهو يشتمني . أغلقت عيني وأنا أشعر بمتعة لا حد لقوتها .
وأنا أفكر : لقد اعتاد أن يفعل ذلك في الحياة ، وفي الحب أيضا .
فيدها نخيرتان بشكل مروع ومميز . كم أنا امرأة محظوظة للغاية .
وهذا واضح . قال لي أنني حيه الأوحده ، وأنه يجب أن يقول هذا .
وإن هذا هو ما يجب أن يقال عندما نترك أنفسنا نتصرف . وآنذاك
يبدو كل شيء على ما يرام .

أصوات المدينة قريبة ، قريبة للغاية ، أكثر اقترابا وكأننا نسمعها تحتك بخشب النافذة • نسمعها وكأنها تتحرك مع العربة • داعيته وسط هذه الأصوات • وهذا الممر • والبحر المتلاطم ، وتزايدت أصوات المجاميع • ثم انخفضت مرة أخرى •

أشعل سيجارة ، ومدها لي بين شففتي ثم أخذ يكلمني •

تكلمت معه ، أيضا ، بصوت خفيض •

ولأنه لا يعرف شيئا عن نفسه ، أخذت أتحدث معه عن نفسه ، وعن مكانه ولأنه لا يعرف أنه يحمل في نفسه جاذبية شديدة ، فقد أخبرته بذلك •

ثم حل المساء ، أخبرني أنني على أن أتذكر حياتي بأكملها • منذ تلك اللحظة التي التقيته فيها • حتى لو نسيت وجهه واسمه ، قال لي : انظري نحوي جيدا • نظرت إليه • قلت انه مثل كل البيوت • هز رأسه بالايجاب • وقال انه مثل كل المنازل •

إذا كان الوجه قد محى من الذاكرة • فلا زلت أذكر الاسم ، وأرى الجدران البيضاء ، والستار الكتاني الذي يفصلنا عن أتون الشوارع الشديد السخونة • والباب الآخر الذي يفتح على ممر يؤدي إلى الغرفة الأخرى • وإلى حديقة مفتوحة تطل على السماء ماتت فيها كل النباتات من الحرارة الشديدة • تحوطها أسوار زرقاء مثل قبيلات سادك الكبرى وبها شرفة مفتوحة تطل على نهر الميكونج •

أحس أنني في مكان مصنوع للضغط على النفس ، فأغرق فيه • سألتني قديم أفكر ؟ أخبرته أنني أفكر في أمي • وأنها ستقتلني لو عرفت الحقيقة • أحسست به يبذل مجهودا ثم تكلم • قال انه يفهم ما إذا يريد أن يخبر أمي • ثم علق : بالعبار • ثم قال انه لا يمكنه ان يتحمل فكرة الزواج • تطلعت إليه ، ونظر إلى يده • ثم قال

انه لهذا لا يمارس الحب أثناء النهار . ثم ابتسم وقال : المرعب دائما هو أن يكون المرء محبوبا أو غير محبوب .

أخبرته أننا لسنا فى النهار ، وكم هو مملوع . واننى حزينة : أنتظره فلا يأتى الى . لذا فأنا حزينة دوما لهذا . حيث أرى نفسى صغيرة . ومع ذلك فقد آلفت الحزن . وعرفناه وكأننا نمارسه دائما : أخبرته أننى يمكن أن أعطيه اسمى حتى لا يلومنى . وقلت ان الحزن لم يعد أمرا طيبا . وان أمى تحببته دوما . أنها كمن يصرخ فى صحراء واسعة . من كثرة أحزانها ، قلت له : لا أفهم ما تعنيه بشكل جيد . لكننى أعرف ان هذه هى الغرفة التى كنت أنشدها . . . تكلمت دون أن أنتظر منه اجابة . أخبرته أن أمى تصرخ بما تؤمن به وكأنه مبعوث الهى . تصرخ أنه يجب الا ننتظر شيئا من أحد . مهما كانت هويته . فالأمر دائما موكل الى الله . ينظر الى وأنا أتكلم ، لم يبعد عينيه عني . نظر الى شفتى وهما تتحركان . ثم داعبني . لعله لا يسمع شيئا . لا أعرف . قلت له اننى لم أرتكب شرا حتى أجد نفسى فى هذا الحال . حكيت له أننا نعانى من صعوبات فى توفير الطعام . والملابس وأننا نعيش على حدة الكفاف ، بمرتب أمى . شعرت بالألم وأنا أفرط فى الكلام . سأل : كيف تتصرفون ؟ قلت ان المسألة أصبحت خارج ارادتنا . وان المأساة قد جعلت جدران أسرتنا تنهار ووجد الجميع أنفسهم خارج الدار . وبدأ كل شخص يتصرف على هواه .

أبكتنى قبلاته ، يقال ان هذا يبعث على المأساة . وأنا لا أبكى مثلما بكيت فى هذا اليوم . ففى تلك الغرفة داهمتنى كل دموع الماضى والمستقبل . وأخبرته أن أمى انفصلت عني يوما . واننى لم أحب أمى أبدا . بكيت . ووضع رأسه فوقى وبكى وهو يرانى أفعل . أخبرته أن فقر أمى ، فى طفولتى ، قد شكل مكانا من الحلم . وأن أمى كانت حلما . واننى لم أر أبدا أشجار أعياد الميلاد

وأن أمي امرأة وحيدة • وأنها أم مطاردة تعيش المأساة التي عاشتها بكافة أبعادها وكأنها تتكلم في صحراء جرداء • وأنها ظلت طيلة عمرها تبحث عن غذاء وعن شخص تحكى له ما حدث لها ، وما كان يحدث لها دوماً • مثل ماري لجران دي روبييه • فتكلمها عن برائتها • وعن ظروفها الاقتصادية • وعن آمالها •

نقد الينسا الليل عبر فتحات النوافذ الخشبية • وارتفعت أصوات الضوضاء • وأصبحت أكثر حدة والتزمت الصمت أكثر • وعندما أضواء المصابيح الحمراء ، خرجنا من المنزل • وارتديت القبة ذات الشريط الأسود التي لا يرتديها سوى الرجال • ثم الحذاء الذهبي • ووضعيت أحمر الشفاه الداكن • وارتديت الرداء الحريري • وأحسست أنني غدت عجوزاً • أدركت بذلك بغتة • وعندما لاحظ هذا قال : لأنك مزهقة •

وعلى الرصيف ، تسير جموع غفيرة في كافة الاتجاهات • ببطء وحيوية • تذوب في الممرات وتتحرك كالكلاب الضالة • أصابها العماء مثل الشحاذين ، حشد من الكلاب ، أراهم في ذاكرتي بكل وضوح • يسرون معا وقد أصابتهم عجالة • أما أنا فأجد نفسي كمن يسير وحيداً وسط هذا الجمع • لا أشعر بأي سعادة • وبلا أحزان وبلا فضول • أسير كمن يمشي دون أن يبدو عليه ذلك ودون أن تكون لدى الرغبة في الذهاب • لكنني أتحرك فقط من هنا الى هناك • وحيدين في الزحام ، أما أنا فوحيدة دائماً • وحيدة وسط الزحام •

ذهبنا الى أحد المطاعم الصينية الفخمة • يوجد في مدخل إحدى العمارات الكبيرة • وهو مثل كل المحلات الكبيرة والبنائيات • يطل على المدينة بشرفات كبيرة وصغيرة • وعادة فإن الضجة التي تصدر من العمارات ، لا تحتل في أوروبا • تصدر من طليات العمال

الصارخة ، وصدى الملاحق ، وزعيق المطبخ أما فى هذه المطاعم فلا أحد يتكلم . وفوق الشرفة يوجد أوركسترا صينى . لذا اتجهنا الى الطابق الأكثر هدوءا ، الذى يؤمه الأوروبيون . فرغم ان قائمة الطعام لا تتغير . الا أن الضجة أقل . وهناك هوايات وجدران سميكة تمنع تسرب الضجة .

سألته أن يحدثنى عن ثراء أبيه ، وكيف أصابه الثراء . قال ان الحديث عن المال يثير الملل . وعندما أصررت ان أعرف أخبرنى أنه يعلم شيئا بسيطا عن ثروة أبيه . فقد بدا كل شىء فى شولن . من خلال المساكن الشعبية . حيث قام ببناء ثلاثمائة مبنى . وهو يملك أكثر شوارع شولن . ويتكلم الفرنسية بلهجة باريسية ثقيلة قليلا . ويتكلم عن النقود بوقاحة بادية . فالأب يمتلك عمارات ياعها من أجل شراء أرض ليبنيها فى جنوب شولن ، كما باع أيضا ، كما يعتقد ، حقول أرز فى سادك . وسألته عن الوباء . أخبرته أنني رأيت شوارع داخلية ذات مبان مغلقة ممنوع دخولها . ابتداء من أول الليل وحتى صباح اليوم التالى . دقت الأبواب والنوافذ بالمسامير بسبب وباء الطاعون قال ان الطاعون أقل درجة هنا . وان مكافحة الأوبئة أكثر عددا من النقود فى البورصة . ثم حكى لى حكاية عن المساكن الشعبية . فقد ارتفعت أسعارها بنسبة أقل من أسعار العمارات . أو المباني الخاصة . وذلك لزيادة الطلب على المساكن فى الأحياء الشعبية التى تتصل أبنتها . فالسكان هنا يحبون ان يكونوا معا ، خاصة السكان الفقراء الذين نزحوا من الريف . ويميلون الى المعيشة فى الخلاء . فى الشارع . لا يجب ان تقتل عادة للفقراء . وقد انتهى أبوه لتوه من تشييد سلسلة من المباني المفتوحة التى تطل على الشارع . مما جعل الشوارع مضاعة دائما . وبالغة الجاذبية . ينامون فيها عندما تشتد حرارة الجو . أخبرته أنني بدورى أحب أن أسكن فى الأماكن المفتوحة وقد بدت لى

هذه الفكرة نموذجية عندما كنت طفلة . وأتينا يجب أن نكون في خارج المنزل كي ننام . أحسست بالألم فجأة . ألم خفيف . دقات في قلبي . في جراحى الحية . المولودة لتوها . والتي يمكن ان يسببها لي ، ذلك الذى يتكلم معي . ذلك الذى أحسستنى بالمتعة بعد الظهيرة . لا أسمع أكثر مما يقوله لي . ولا أسمع كثيرا مما يدور حولى . عندما سكبت أخبرته أن يستطرد فى الكلام . ففعل ، وسمعته من جديده . قال انه يفكر كثيرا فى باريس . وانه يجهدنى مختلفة كثيرا عن الباريسيات . واننى أكثر لطفا . أخبرته أن هذا النوع من المبانى يجب ألا يزداد على حد معين . فلم يرد .

وابان فترة علاقتنا . وطوال عام ونصف . كنا نتكلم بنفس الأسلوب . لا نتكلم سوى عن أنفسنا . منذ اليوم الأول ، كنا نعرف ان هناك مستقبلا مشتركا غير محدد المعالم . ولم نتكلم أبدا عن المستقبل ، كنا نطرح أفكارا مثل الصحافيين ، متبادلة ومتوازية . أخبرته أن اقامته فى فرنسا تشكل حلا حتما بالنسبة له . فاقتنع بذلك . وقال انه اشترى أشياء كثيرة فى باريس . نساءها ومعارضها وأفكارها . وأنه يكبرنى باثنى عشر عاما . وهذا وحده يثير الخوف . سمعته وهو يتكلم . ورأيتة وهو يخطئ . وأحسست به وهو يحبنى بنوع من التمثيل المتكلف فيه ولكنه مليء بالصدق .

لم يكن يستطيع أن يعبر عن مشاعره سوى من خلال المغالاة فى التمثيل ، اكتشفت أنه لا يمتلك القدرة ان يحبنى ضده رغبتة أبيه . وانه لا يمكنه ان يصحبنى لمقابلته . بكى دوما لأنه لم يجد القوة ان يجتاز حاجز الخوف . يمارس بطولته على وحدى . أما ضعفه فموجود فى نقود أبيه .

عندما حدثته عن أخى هوى فى قاع هذا الخوف . وكأنه كان يرتدى قناعا خارجيا . اعتقد أن الدنيا كلها من حولى تنتظر منه

ان يطلب الاقتران بي . يعرف انه مخلوق ضائع في عيون أفراد أسرته . وانه بالنسبة لها لا يمكنه سوى ان يضيع أكثر . وقد يفقدني في هذه الظروف .

قال انه ذهب من أجل الدراسة بالمدرسة التجارية في باريس . وأخبرني بالحقيقة كاملة . وانه لم يستكمل تعليمه . وان أباه قطع عليه خط الحياة . فأرسل له تذكيرة العودة . وأجبره أن يغادر فرنسا . وكانت العودة حدثا مأساويا . فلم يمه دراسته بالمدرسة التجارية . قال انه اعتمد ان يمه دراسته هنا من خلال دروس بالمراسلة .

بدأت اللقاءات مع الأسرة من خلال دعوات على الغداء في شولن . فبمناسبة حضور أمي وأختي الى سايجون ، أخبرته انه يجب ان يدعوهم في أحد المحلات الصينية الكبرى التي لا يرتادونها . والتي لا يعرفونها أبدا .

كانت تلك الأمسيات تمر بنفس الوتيرة . فيصاب أختي بخيبة أمل ولا يوجهون لي أي أسئلة ولا ينظرون اليه كثيرا . ولا يمكنهم ان يفعلوا ذلك . واذا استطاعوا ان يفعلوا . فمن أجل ان يروونه . كانوا قاذرين ، من ناحيتهم ، على ممارسة ضغوطهم وان يسيروا على حسب القواعد الأساسية للحياة داخل المجتمع . وأثناء هذه الدعوات كانت أمي هي الشخص الوحيد الذي يتكلم . في أول الأمر تتكلم قليلا . ثم تدلي ببعض التعليقات حول طريقة وضع الأطباق . وعن أسعارها الغالية . ثم تلتزم الصمت . أما هو ففي المرتين الأوليين كان يصدق الكلام . ويحاول أن يروي حكايات عن مغامراته في باريس . لكن بلا جدوى . وكأنه لا يتكلم . وكأن أحدا لا يسمعه . وكانت محاولاته تهوى داخل جب سخيق .

ويستمر أخوتي في جعله يحس بالخيبة . يبدون وكأننى مصابة
بخيبة أمل لم تحدث لأحد .

يدفع ، ثم يحسب النقود . ويضعها فوق الطبق . فينظر
إليه الجميع . فى المرات الأولى ، كما أذكر ، كان يضع سبعة وسبعين
قرشا . فكادت أمى أن تنفجر ضاحكة . ثم قمنا لمغادرة المكان .
بلا كلمة شكر واحدة من أى منهم . ولم تنبث بكلمة شكر لقاء دعوة
عشاء فاخرة . فلا سلام عند اللقاء أو الوداع . وكان لا شئ هناك .
ولا كلام يقال .

لم يوجه اليه أخوتي أى كلمات . وكأنه شئ غير موجود
بالنسبة لهم . وكأنه شئ غير منظور تصعب رؤيته . أو يصعب
أن تسمعه . أما هو فقد وضع في أعماقه اننى لا أحبه . وان
ما يحدث ضرب من المستحيل . وأنه لم يكتف أن يتحمل أى شئ منى
دون أن يكون طرفا فى هذا الحب . هذا لأنه صينى وليس أبيض .
لقد تجاهل أخى الأكبر وجود حبيبى بأسلوب يعكس مفهوما خاصا
لهذا المخلوق . . مثل تصرف أى أخ أكبر تجاه غراميات أخته .
أما أنا . فلم أكن أتكلم كثيرا فى حضور أسرتى . ويجب ألا أوجه
إليه أى كلام سوى : « نعم » عندما أريد أن أبلغه رسالة من طرفهم .
فأنا الذى على أن أخبره اننا يجب أن نذهب عند المنبع . كى نشرب
ونرقص . فيتصرف كأنه لم يسمع . ولأننى يجب ألا أراجع آراء
أخى الأكبر . ويجب ألا أكرر ما قلته فأننى أسحب سؤالى . فتكرار
السؤال شئ خاطئ . واستعطف رضاه فإرد ، أخيرا ، على بصوت
خفيض ، كمن يريد طلبا خاصا . يقول انه يجب أن ينفرد بى
لحظة . يردد هذا كأنه يتوسل . هنا يجب أن أظهار أتنى لا أسمع
جيدا . وكأنه يريد أن يتهم أحدا . وان يتغاضى عن سلوك أخى
الأكبر . وهنا يجب ألا أرد عليه فيستمر فى الكلام ويقول : أمك
متعبة ، انظرى إليها . فأنى تصاب بالنعاس بعد العشاء الصينى

الثقيل فى شولن . فلا أرد عليه . وأسمع أخى الأكبر يقول بعبارة قصيرة ، قاسية ومحددة ، ان أمى تقول عنه انه واحد من ثلاثة أبناء . وانه يتكلم بلباقة . تردد جملتها ويسمع أخى . ويتوقف كل شئ . وأعرف الخوف من حبيبى ، ومن أخى الصغير . فلا يتردد ونذهب جميعها الى النبع . وتذهب أمى معنا عند النبع . وهناك عند النبع ، تنام .

وفى حضور أخى الأكبر ، يكف عن ان يكون حبيبى . لا يكف عن التواجد ، لكنه لا يفعل شيئاً ازاء فتاته . التى تطيع رغبة أخيها الأكبر . الذى يتجاهل ، بدوره ، حبيبها . وفى كل مرة يكونان معا يتبادلان النظر ، فأنا لا أستطيع ان أتحمل رؤيتهما . فحبيبى يتم تجاهله تماما ، هذا جسده النحيل . هذا الضعف الذى ينقلنى الى عالم المتعة . وتبدو أمام أخى بشائر فضيحة خفية ، وسبب لجلب العار عليه ان يخفيه . فلا أستطيع أن أناضل ضد أوامر أخى الصامتة . يمكن ان أفعل ذلك فيما يتعلق بأخى الأصغر . وعندما يرتبط الأمر بحبيبى فلا أستطيع شيئاً ضد نفسى . فالكلام عنه يجعلنى أكشف الوجه الخبيث لأخى . وأحس كأن شخصا ينظر الى من الجانب الآخر . وان عينيه تفكران فى شئ آخر . فى فكيه اللذين تصبطان خفيفا ولكن من السهل رؤيتهما يبدوان وكأنهما ساخطان يعانيان وكأن عليهما حكما يجب تحمله . هذا الامتحان فقط ، من أجل ان نتناول وجبة جيدة فى مطعم فخيم . أما الأمر الطبيعى فى كل هذا . فهو ان الذكريات تكشف عن ليل صاف فى أغواره تنطلق صرخة حادة يطلقها طفل .

وعند النبع أيضا يكف الجميع عن الكلام .

ويطلب الجميع شراب مارتل بزييه . سرعان ما يتجرعه أخواى تم يطلبان المزيد فتقوم أمى ، وأنا ، باعطائهما شرابنا . ويصاب

أخوای بالثمالة • ومهما كان الأمر فانهما لا يبادلانه الحديث • ولكنهما يعملان على تجريم ما تفعله • خاصة الأخ الأصغر • فهو يشكو دائما أن المكان كثيب • وانه ليس فيه سباقيات • وان المتنزهين عند النبع قليلون طيلة الأسبوع • وأرقص مع أخى الأصغر • أما مع حبيبى فيجب الا أرقص • لم أرقص قط مع أخى الأكبر • فأنا ممنوعة دائما من ارتكاب أى خطأ يشكل خطرا • فهذا تصرف سيء يتفق عليه الجميع • لأنه يجب ، فى عرف الأخ الأصغر • الا تتماس أجسادنا •

وفى هذه الأثناء يشعر كل واحد منا أن وجهينا يكادان أن يقتربا من بعضهما •

حدثنى الرجل الصينى القادم من شولن وهو يكاد أن يبكى قائلا : ماذا فعلت لهم ؟ أخبرته أنه يجب الا يقلق ، فهم هكذا دوما • معنا أيضا ، فى كل وقائع حياتنا اليومية •

شرحت له ذلك عندما التقينا ، مرة أخرى ، فى مسكنه • حدثته عن عنف أخى الأكبر ، البارد ، المهين وأخبرته عن كل ما جرى لنا وأصابنا ، فقد بدا كأنه سيقتله • وان يمحو له حياته • بل هو أبعد من ذلك • انه يحتقره ، ويتصيد له الأمور ، ويتعمد أن يجعله يعانى • حدثته الا يخاف • والا يخاطر بشئ • لأن الشخص الوحيد الذى يخشى أخاه الأكبر ، أمام كل هذه الأشياء الجادة التى تبعت على الخجل هو : أنا •

لم يقل أحد منهم : صباح الخير • أو مساء الخير • أو عيد سعيد • أبدا • لم يردد أحد كلمة شكر • ولا كلمة • فلا حاجة لهم فى الكلام • ويبقى كل شئ ضامتا • كأنهما أسرة من حجارة • تحولت دون أى سبب • يحاولون قتلنا كل مرة • ان يقتلونا • ليس فقط لأنهم لا يتكلمون • ولكن أيضا لأنهم لا يتبادلون النظرات •

حتى فى لحظة اللقاء • فانهم لا يتبادلون النظرات • النظرة الوحيدة
هى حركة فضول ازاء ما يحدث • نظرة مليئة بالازدراء • أما هى
فترى أنه لا توجد فى الدنيا نظرة تعادل نظرتها اليه • حتى لو كان
فى نظرهم شخص غير محترم • حتى لو الغيت كلمة « حوار » فيما
بينهم ، وكأنهم اتفقوا ان أفضل شئ هو تجنب العار بكبرياء •
اتفقت المجموعة التى تشكل أسرة واحدة • واصابتها حالة كراهية
تخف حدتها تدريجيا • أنها تشكل ، معا ، حالة من العار يتنافى
مع مبدأ ان نعيش حياتنا • شئ ما يرسخ فينا من أعماق التاريخ •
وهو تاريخ ثلاثة أبناء من هذه المرأة ذات القلب الأبيض : أمى التى
اغتالها المجتمع • نحن من هذا المجتمع الذى أصاب أمى بحالة يأس •
وهذا هو السبب الذى جعل أمنا أكثر حبا • وأكثر ثقة • وان نكره
الحياة • ونكره أنفسنا •

لم تلاحظ أمنا ما أصبحنا عليه ابتداء من هذا المشهد اليأس •
أتكلم دائما عن غلمان • وأولاد • ولكن هل هذا أمر متوقع • فكيف
استطاعت أن تسكت ذلك الذى أصبح حكايتها نفسها ؟ هل تكذب
وجها وعينيها وصوتها ؟ وحبها ؟ يمكنها أن تموت ، وأن تنتحر •
فتشتت تلك المجموعة الميتة • وتجعل ابنها الأكبر ينفصل عن
أخويه الصغيرين ، لكنها لم تفعل • فهى غير حريصة على ذلك •
وهى تعارضه وغير مسئولة عنه • وهى كل هذا مجتمعا • لقد
عاشت • وأحببناها ثلاثتنا ، الى أبعد درجات الحب • ولنفس هذا
السبب لم تستطع ، ولم يمكنها ، أن تسكت • وان تخبىء وتكذب
شيئا بشأن الاختلافات التى تجمعنا نحن الثلاثة •

استغرق هذا وقتا طويلا • استغرق سبع سنوات ، بدءا عندما
كنت فى العاشرة ثم أصبحت فى الثانية عشرة • ثم ثلاث عشرة
سنة • أربع عشرة ، خمسة عشر عاما ، ثم ستة عشر ، وسبعة عشر
عاما •

استغرق هذا وقتا طويلا . سبع سنوات . ثم تخلى الأمل
أخيرا . فهجرنا . هجر أيضا كافة المحاولات ضد بقائه أمام المحيط .
وان يبقى تحت ظلال الشرفة . حيث كنا نتطلع الى جبل سيام .
ذلك الجبل الذى مما يبدو بشعا وسط أشعة الشمس . أسود
تقريبا . وها هي الأم أخيرا تبدو هادئة وناضجة . أما نحن ،
فأطفال أبطال يائسون .

مات الأخ الأصغر فى شهر ديسمبر عام ١٩٤٢ أثناء الاحتلال
اليابانى . تركت سايجون بعد حصولى على شهادتى الثانية فى عام
١٩٣١ . لم يكتب لى سوى مرة واحدة طوال عشر سنوات . دون
أن أعرف لذلك سببا . وكأن الخطاب متفق عليه . فهو معاد
الصياغة . وبلا أخطاء . ومصحح . أخبرنى أنه على ما يرام ، وان
الأمور تسير طبيعيا فى المدرسة . كان خطابا طويلا من صفحتين
كاملتين . عرفت خطه الطقولى . أخبرنى أيضا أن لديه شقة
وسيارة . وحدثنى عن ماركتها . وانه عاد لممارسة لعبة التنس .
وانه بخير وكل شئ يسير طبيعيا . وانه يقبلنى ، ويحببنى بشدة
لم يتكلم عن الحرب . ولا عن أخى الأكبر .

أتكلم دائما عن أخوى كأنهما كائن واحد . مثلما صنعتهما
أما . فأقول « أخوى » وهى تسمية تمارسها الأم خارج نطاق
الأسرة . فتقول لى « ولدى » تتكلم دائما بحماس عن ولديها باعتزاز
شديد . وفى الخارج لا تقوم بتحديدتهما . ولا تقول ان الولد الأكبر
أقوى من الثانى . تقول فقط أنه أقوى أخوته مثلما يفعل مزارعو
الشمال . كانت فخورة بقوة ولديها وكأنهما أخوها . وكأن ابنها
يحتقر الضعفاء . مثل حبيبى القادم من شولن كما قالت لأخى
الأكبر . لم أكتب له هذه الكلمات . انها كلمات أصبحت أشبه
بالجثث العفنة الموجودة فى الصحارى . أقول « أخوى » لأننى هكذا

استعذب نطقها • وقد ظلمت أفعل ذلك من ناحية أخرى ، بعد ان
كبر أخى الأصغر وأصبح شهيدا •

لم تكن أسرتنا تشهد أى احتفال ، حتى فى أعياد رأس السنة •
ولم يكن لدينا أى مناديل مطرزة • ولا أزهار • أيضا ولا نقوش •
أو موتى نذكرهم فى مناسبات • كان لدينا شئ واحد • أن أخى
الأكبر أصبح قاتلا • أما الأخ الأصغر فقد مات من قبل أخيه الأكبر •
أما أنا فقد رحلت وخلعت نفسى عنهما • حتى موته ، فان أخى الأكبر
قد ناله وحده •

فى تلك الفترة أصاب أمى جنون من شولن • ومن الصورة •
وهن العاشق • لم نعرف بالضبط ماذا حدث فى شولن • ولكننى
كنت أراها ترقبى • وكأنها تشك فى شئ ما • كانت تعرف
ابنتها • هذه الطفلة ، تتحرك حول هذه الطفلة ، منذ بعض الوقت •
يبدو عليها شئ غريب ، وكأنها تتحشم من أجل جنب الانتباه •
ويصبح كلامها أكثر بطئا من المعتاد • وتغلو أكثر جدية من كل شئ
يسبب لها التوهان • فتغيرت نظرتها • وأصبحت الفتاة نسخة من
أمها ، من بؤس أمها • وكأنها حاضرة لأعمالها • ويظهر الرعب
فجأة فى حياة أمى • لقد انزلقت ابنتها ، بسرعة ، ناحية الخطر •
لذا فهى لن تتزوج أبدا • ولن تجرؤ على الظهور أمام الناس • لقد
جردتها ابنتها من الشرف • فأصبحت وحيدة ، ضائعة • وعندما
تندلع المشاكل تلقى أمى بنفسها على • ثم تحبسنى فى الغرفة •
وتكيل لى اللكمات بيديها • ثم تصفعنى • وتجرنى من دلابسى •
وتقترب منى • وتشتم جسدى • وتصرخ • وأنها ستطردنى من
البيت وأنها تأمل ان ترانى ميتة • وأن أحدا لن يرغبنى • وتبكى
وهى تطلب كل ما يمكنها ان تفعله فى هذه المناسبة • خاصة ان
الخروج من المنزل أصبح يصيب المكان أكثر بالعفن •

ويقف الأخ الأكبر وراء جدران الغرفة المغلقة .

ويرد الأخ على أمه . ويقول لها انها على حق في ان تضرب
الطفلة . ويصبح صوته ملبدا . وحميما وعميقا . ويقول لها انه
يجب ان يعرف الحقيقة مهما كان الثمن . وعليه ان يعرف كى يمنع
هذه الصغيرة الا تضيق ، وكى يمنع أمى من ان تصاب باليأس .
فتضرب الأم بكل قوتها . بينما يصرخ الأخ الأصغر لأمه ان يتركها
في حالها . ويذهب الى الحديقة . ويختفى . يخاف ان تقتلنى أمه .
خائف . خائف دائما من هذا المجهول ، من أخى الأكبر . ثم يهدأ .
بكت أمى على خراب حياتها . وعلى طفلتها . بكيت معها . وكذبت
حين أقسمت بحياتى ان شيئا لم يحدث لى . لا شيء سوى قبلة .
قلت : كيف تريدن أن أتصرف ؟ كيف تريدن أن أفعل مع حبيبى
انه شيء أكثر قبحا وسخافة . أعرف أن أخى يلتصق بالباب
وينصت . ويعرف ما تفعله أمى . يعرف أن الصغيرة تضرب .
ويريد أن يستمر الوضع هكذا . حتى لو اقترب الأمر من حد
الخطر . فأمى لا تريد أن تبلغ هذا الأمر الى أخى الأكبر الذى
سيمتلئ بالغضب والثورة .

كنا فى تلك الآونة صغار السن ، وكانت تدور مشاحنات
بين أخوى ، بصفة دائمة . هناك احتجاج باد . يبدو فى كلاسيكية
أخى الأكبر الذى يقول للأصغر : اخرج من هنا . وعلى التو يصيح :
اضرب فيتشاحنان دون ان يتبادلا كلمة واحدة نسمع فقط لهاتهما .
وأنيتهما . وصوت ضرباتهما المكتوم . وكالعادة فان أمى تصاحب
هذه المواقف بمجموعة من الصراخات المدوية .

انهما ملانان لنفس المنبع من الغضب . هذا الغضب الأسود .
الذى لا يعرفه الاخوة ولا الأخوات أو الأمهات . فالأخ الأكبر يعانى
أنه لم يمارس شره بحرية . وانه لم يتسلط بهذا الشر . ليس هنا

فقط . ولكن فى كل مكان . وفى مثل هذا المشهد من الرعب البشع
يمثل الأخ الأصغر دوما لأخيه الأكبر .

وعندما يتشاجران نشعر بخوف متساو من ان يقتل احدهما
الآخر . فتقول الأم انهما كانا دائمي الشجار . وانهما لم يلعبا قط
معا . ولم يتبادلا الكلام أبدا . وأن الشئ الوحيد المشترك بينهما
هو أمهما ، وبصفة خاصة هذه الأخت الصغيرة . ولا شئ سوى
رابطة الدم .

اعتقد أن أمى كانت تنادى على ابنها الصغير « بطقى » .
كانت تسميه أحيانا بهذا الاسم . أما عن ولديها الآخرين فتقول
« الصغيرين » . ولم تكن نتكلم عن كل هذا فى خارج المنزل . وقد
تعلمنا ان تسكتنا عن أن نطلب أساسيات حياتنا : وتلك هى
المأساة . ثم عن كل ما يتبقى لنا . أهل الثقة القدامى ، وتبدو
الكلمة نشازا ، انهم طعامنا اليومي ، ولقاءاتنا فى خارج المكاتب .
فى شوارع سايجون أولا ثم فى السفن الراسية . والقطارات ، ثم
فى كل مكان .

استولى هذا ، فجأة ، على أمى . وخاصة فى فصل الجفاف .
وغسلت البيت بأكمله . وكى تنظفه . قالت ان هذا بدافع
التطهير . ثم تشعر بالانتعاش . فقد بنى البيت فوق أرض لبنة .
تعزلها عن الحديقة . والشعابين ، والعقارب ، ومن النمل الأحمر .
وفيضان نهر الميكونج الذى يحدث عندما تهب الزوابع . وحيث
تنمو الحشائش الطويلة بارتفاع يصل الى أسطح المنازل مما يمكن
غسل البيوت بجرادل كبيرة من المياه . أو الاستحمام بداخلها كأنها
حديقة . وفى الداخل . توضع المقاعد فوق الموائد . أما المنزل فقد
ارتوى . وغرق البيانو الموجود بالقباعة الصغيرة . فى المياه .
وانسالت المياه فوق الدرابزين . زاحفة نحو البهو والمطبخ بدا الخدم

سعداء • كانوا معا يرشون المياه ثم يغسلون الأرض بالصابون الذى
اشتريناه من مارسيليا والجميع حفاة الأقدام • والأم أيضا • الأم
تضحك : ليس لدى الأم ما تقوله ضد أى شئ • فالمنزل بكامله
معطر • وتنبعث من الأرض رائحة ذكية ندية بعد العاصفة • رائحة
تبعث على الجنون من الفرحة خاصة عندما تختلط بالروائح الأخرى •
رائحة صابون مارسيليا رائحة النقاء • والبهجة • والنصاعة
والبياض • ورائحة أمنا ، الطهارة والمهابة هى أمنا • ينزل الماء حتى
الممرات • وتأتى أسرات الخدم • وزوار الخدم أيضا • وأطفال
المنزل المجاور من البيض • وتشعر الأم بالسعادة لهذا النظام • ربما
ان الأم تشعر ، أحيانا ، بالسعادة • فى زمن النسيان • هو زمن
الغسيل الذى يمكن ان يجلب السعادة لأمى ، فتذهب الى الصلاة ،
وتجلس أمام البيانو وتعزف المقطوعات التى تحفظها عن ظهر قلب •
والتي تعلمتها فى المدرسة الابتدائية • وتغنى وأحيانا تعزف وهى
تضحك • ثم تقوم وترقص وهى تغنى • ويفكر كل واحد ، والأم
أيضا ، يمكنهم ان يكونوا سعداء فى هذا المنزل القدر ، الذى تحول ،
فجأة ، الى بركة • وحقل على شاطئ النهر •

هاتما الشابان الصغيران ، الفتاة الصغيرة ، والأخ الأصغر
هو أول من يتذكر • يتوقفان فجأة من الضحك ، ويسيران ناحية
الحديقة حتى يأتى الليل •

فى هذه اللحظة التى أكتب فيها ، أذكر أن أخى الأكبر لم يكن
فى فنلونج عندما يغسل المنزل بالمياه الكثيرة • كان عند الوصى •
قس قرية لوت وجارون •

قد يصيبه الضحك أحيانا • ولكن أبدا • لم يضحك مثلنا
أو أكثر منا • وقد نسيت شيئا • نسيت أن أقول اننا كنا أطفالا
ضحوكين • أنا وأخى الأصغر كنا ضاحكين حتى النفس الأخير من
حياتنا ••

أرى الحرب تحت نفس ألوان طفولتي • امتزج زمن الحرب
بنفوذ أخى الأكبر ، وهذا ، بلا شك ، لأنه فى أثناء الحرب مات أخى
الأصغر بداء القلب ، كما قلت مسبقا • لقد امتثل أخى الأكبر وهاج ،
كما اعتقد جيدا ، ولم يعد يره ثانيا • لم يره قط أثناء الحرب •
وهكذا ، لم يكن يمهنى كثيرا ان أعرف هل هو حى أم ميت • فقد
كنت أرى الحرب مثلما يراها ، منتشرة فى كل مكان ، فى كل
الأرجاء • كان يسرق ، ويسجن ، فى كل مكان هناك بكل مزيج •
كأنه حاضر فى الجسد ، وعلى البال • فى الأمس • وفى النوم •
فى كافة أوقاته • يصبح فريسة للاحساس الشمل للسيطرة على
أرض جسد طفلة • جسد أقل قوة • كأنه شعب مقهور • كل هذا لأن
الشر كان هناك ، وأيضا عند الأبواب • • قريبا من الجلد •

عائدنا الذهاب الى شقيقه • نحن الاثنين ولم نكف عن الحب •

لم أكن أعود الى البنسيون أحيانا • فأنام على مقربة منه •
لا أريد أن أنام بين ذراعيه • فى دفئه • ولكننى أنام فى نفس
الغرفة • ونفس السرير • وأشعر أحيانا بافتقاد المدرسة • نذهب
الى المدينة ليلا لنتناول طعامنا • يفتح الدش • انه يقدس ذلك •
يجففنى • رغم كل شئ • فأنا المفضلة فى حياته • يعيش فى فزع
أن أقابل رجلا آخر • أما أنا فلم أكن أخاف من شئ كهذا قط •
جرب خوفا آخر • ليس لأننى بيضاء ، ولكن لأننى صغيرة السن •
صغيرة السن لدرجة يمكن أن تؤدي به الى السجن اذا تم اكتشاف
حكايتنا • طلب منى أن نستمر فى الكذب على أمى ، وخاصة أخى
الأكبر ، والا أخبر أحدا بشئ • واستمرت فى الكذب • وضحكت
من خوفه • قلت له اننا بالغو الفقر ، مما قد يدفع أمى أيضا ان
تلبجا الى القضاء • ومن ناحية أخرى فالقضايا التى دخلت فيها قد
خسرتها • وخاصة التى رفعتها ضد مصلحة المساحة وضد المديرين •
ضد المحافظين والقانون ، لم تعرف ماذا تفعل لهم • احتفظت

بهذه وثيها وانتظرت . وظلت تنتظر ، لم تستطع شيئا . صرخت
ولعنت حظها . وقالت انها يجب ألا تكون كذلك . وكانت على
شفا حفرة من الاحساس بالخوف .

كانت ماري كلود كاربنتر أمريكية . وكانت ، كما أتذكر
وأعتقد ، من بوسطن . وكانت عيناها وضائتين للغاية . أزرق
رمادي . في عام ١٩٤٣ . كانت ماري كلود كاربنتر شقراء . رغم
انها على وشك الذبول . وجميلة كما أعتقد . وذات ابتسامة خفيفة
سرعان ما تختفي وتذوب في الضوء لها صوت سرعان ما يرتد
صداه . خفيض ونشاز في حدة . كانت في الخامسة والأربعين .
أو ما شبه . كانت تسكن الشقة رقم ستة عشرة . على مقربة من
« الما » . كانت في آخر شقة . في أكثر الشقق اتساعا في عمارة ،
تطل على نهر ألسين . تذهب لتناول العشاء عندها في الشتاء .
وللغداء في الصيف . كانت الوجبات مجهزة عند أحسن مطاعم
باريس . كانت شهية دوما . ولكنها ، بالتقريب ، غير كافية . لم
نر مثيلتها سوى في منزلها . فلا يوجد لها مثيل في أي مكان آخر .
كان هناك أحيانا ضيوف . ودائما هناك واحد أو اثنان أو ثلاثة من
الأدباء . جاءوا مرة واحدة . ولم نرهم بعد ذلك قط . لم أعرف
أين تقابلت معهم . ولا كيف تعرفت عليهم أو لماذا دعتهم . لم
أسمعها تتكلم عن أي منهم ولم نسمعها تتكلم عن أي من أعمالهم .
فتناول الطعام يستغرق بعض الوقت . تتكلم طويلا عن الحرب .
وعن معركة ستالينجراد . حدث ذلك في نهاية شتاء عام ١٩٤٢ .
كانت ماري كلود كاربنتر كثيرة الانصات . تستمع كثيرا وتتكلم
قليلا . وتبدو مندهشة دوما من الأحداث التي تفوتها . وتضحك
بسرعة شديدة في نهاية الوجبة . وتعتذر ان عليها أن تذهب بسرعة
فلديها ما تفعله ، كما تقول . ولم تقل شيئا عم تفعله . وعندما يكون
العدد كافيا . تبقى هناك ساعة أو ساعتين بعد ذهابها . تقول : ابقوا

على راحتكم . وفى غيابها لا يتكلم أحد عنها . فكما أعتقد أن أحدا لا يمكنه ان يتكلم عنها . لأن أحدا لا يعرفها . تذهب وتعود دائما وقد ارتسم على وجهها نفس الانطباعات كأنها تحس بنوع من الكابوس الأبيض . تعود وكأنها قضت بضع ساعات مع قوم غرباء . فى وجود ضيوف يمرون بنفس الحالة . لا تعرفهم بالمرّة . يعيشون لحظاتهم بلا غد . وليست لديهم أى دوافع انسانية . وكأنها اجتازت الحاجز الثالث ، كأنها قامت برحلة فى قطار . أو تنتظر فى عيادة طبيب أو فى فندق أو مطار . فى الشتاء . نتناول غذائنا فى شرفة كبيرة تطل على نهر السين ونحتسى القهوة فى الحديقة التى تشغل سقيفة العمارة . كان هناك حمام سباحة . لا أحد يستحم فيه . يطل على باريس بطريقها الخالية ، والنهر والشوارع . والأزقة خاوية وزهور التقلايا ، أتطلع الى ماري كلود كاربنتر كثيرا . طيلة كل الوقت . لم تبد اهتماما بذلك . لكننى لم أستطع أن أمنع نفسى عن هذا . أنظر اليها كى أجده ماري كلود كاربنتر . لماذا تتميز أكثر من الآخرين ؟ لماذا اختارت ان تكون بعيدة عن بوسطن ؟ ولماذا هى امرأة ثرية ؟ ولماذا لا يعرف أحد عنها شيئا الى هذا الحد ؟ لا شيء . بل ولماذا هذه الاحتفالات كأنها شيء جاد ، لماذا تبدو عيناها بالغة الشرور الى أبعد أعماق حدود البصر . وكأنها جزء من الموت . لماذا ؟ ماري كلود كاربنتر . لماذا كل هذه الأثواب التى تريدها وهى ، بشكل عام ، تبدو وكأنها غير مخصصة لها . وكأنها مغطاة بجسد آخر أثواب محايدة ، جامدة . فاتحة الألوان ، بيضاء كأنها الصيف فى قلب الشتاء .

هناك أيضا بيتى فرنانديز ، التى تتمثل فى ذاكرة الناس الأقل انتاجا القائمين فى ركن الضياء اللامعة التى تنبعث من النساء . بيتى فرنانديز هى أيضا امرأة غريبة . غريبة أيضا فى نطق اسمها . ها هى تسير فى شوارع باريس ، عوراء ، ضعيفة البصر . تقوم بتضييق عينيها كى تعرف أن كل شيء يسير على

مايرام . تميل بإشارة خفيفة : صباح الخير . هل كل شيء
على مايرام ؟ ماتت منذ أمد طويل ، ربما منذ ثلاثين عاما . اذكر
تكريمها . لقد مر وقت طويل ولم أنس . فلا شيء فيها الا ومسني ،
كل ما تتسم به من سمات . لاتهتم بالظروف ولا بالعصر ، ولا البرد ،
أو الجوع . ولا بهزيمة المانيا . ولا التغلغل في أعماق الجريمة .
تسير في الشارع كأنها تجتاز التاريخ . فهذه الأشياء ، هذه
الأشياء مرعبة ، فهنا أيضا العيون وضاعة والثوب وردى وقديم .
وملئ بالأتربة . يلمع شعرها الأسود في شمس النهار . رقيقة ،
وطويلة وكأنها مرسومة بالحبر الصيني . تبدو عليها المهابة .
يتوقف الناس وينظرون اليها بدهشة . يتطلعون الى مهابة هذه
المرأة التي تمشي دون أن تلتفت حولها . امرأة سامية لاتعرف قط
من أين جاءت . ثم نتساءل انها لا يمكن أن تأتي سوى من هذه البقعة
من الأرض . فهي جميلة تؤثر فيمن تحدثه . ترتدى أزياء مطرزة
على النمط الأوربي القديم . أما باقي الأنسجة فانها مقصبة بخيوط
حريرية . ملابس قديمة انتهت موضتها . كأنها مصنوعة من ستائر
قديمة . بقايا أشياء . قطع أثرية . قصاصات بالية من عنديات
الحائكين الكبار . جلود تعالب قديمة مقروضة . قناديس قديمة .
ورغم ذلك يبدو جمالها مميزا . كانت سريعة التأثير بالبرد .
تبدو وكأنها قادمة من منفى . وان لاشيء يستأهلها . ترتدى
أشياء واسعة عليها . تبدو جميلة . تسير كأنها ترفل . بالغة
الرقة . لاتحمل حقيبة في يدها . ومع ذلك تبدو جميلة . لقد
صنعت على هذا المنوال . برأسها وجسدها . فكل شيء يمسها
يشارك على التو ، ودائما ، في هذا الجمال .

استقبلت بيتي فرنانديز . كان يمتلك مطعم « جور » حيث
كنا نذهب أحيانا ، أنه نفس المكان الذي كان يذهب اليه
دريو لاروشيل . كاتب يعاني من الكبرياء بشكل ظاهر . يتكلم

قليلًا حتى لا يتنازل عن كبريائه • لصوته عمق مزدوج • بلغة كأنها مترجمة • يتكلم بصعوبة • ربما هناك في براشسيلاتش أيضًا • لا أتذكر تفاصيل ذلك جيدًا • أسفت على هذا كثيرًا • لم يأت سارتر قط إلى هناك • جاء أيضًا شعراء من مونبارناس لكنني لم أعرف اسم أي منهم • لم يكن هناك ألمان • ولم نتحدث في السياسة • كنا نتكلم عن الأدب • فيتحدث رامون فرنانديز عن بلراك • ونسمعه يتحدث حتى ساعة متأخرة من الليل • يتكلم عن معرفة • لقد نسيت الشكل الذي كان يبدو عليه • لكنه كان يضمن بمعلوماته • وأيضًا بأرائه • تكلم عن بلراك كأنه هو نفسه • وكأنه جرب يوما أن يكون بلراك • رامون فرنانديز • كانت لديه كنوز ثمينة في المعرفة • بطريقة تبدو ضرورية وواضحة في أن يخدم المعرفة ودون أن يجعلك تحس بضرورتها وثقلها • أنه أحد الرجال الأنقياء • كما يبدو وكأننا في عيد حين نلتقي في الشارع ، أو في المقهى ، كان سعيدا لرؤيتي • يحييني بامتنان ويردد : صباح الخير • هل أنت على مايرام ؟ ينطقها باللغة الانجليزية ، بلا فواصل ، وبضحكة رنانة • • وأثناء الضحكات يلقى نكات حول الحرب ، تعبر عن معاناته المميزة التي تنسأل منه • فالمقاومة عنده مثل حبات البن ، والجوع أشبه بالبرد • والشهيد انسان جوعان • أما بيتي فرنانديز فلا تتكلم سوى عن الناس الذين تلمحهم في الشارع أو عن تعرفهم : كيف هم يسرون ؟ وعن أشياء لاتزال معروضة في واجهات المحلات • وعن توزيع الكميات الإضافية من الألبان • والسماك والمحاليل المسكنة لمن تنقصهم • وأيضًا عن البرد والجوع • كانت تتحدث دومًا عن تطبيق الوجودية • تبقى هناك محاطة بحبة خاصة • باللغة الشعرية وبالغة الرقة إزاء رجال المقاومة • وآل فرنانديز • وأنا • وبعد عامين من الحرب • أصبحت عضوا في الحزب الاشتراكي

الفرنسي . المعادلة مطلقة . انها نفس الشيء ونفس الحساسية
ونفس الجاذبية . ونفس الضعف والهشاشة . فلنقل نفس
المعتقدات التي تدفع للايمان بالحل السياسى للمشاكل الشخصية .
لاتزال بيتى فرناندينز . تتطلع الى الشوارع الخالية من أثر
الاحتلال الالماني . تنظر الى باريس . وميادين طيور القتلايا
المليئة بالزهور مثل هذه المرأة الأخرى ، ماري كلود كاربنتر . التي
كانت تقيم ولائمتها فى نفس الفترة .

صحبها من البنسيون فى سيارته الليموزين السوداء .
ثم توقف قليلا قل أن يدخل حتى يطمئن أن أحدا لا يراهما .
وان الليل قد حل . نزلت وجرت . ولم تلتفت اليه . وما أن
اجتازت البوابة حتى لاحظت ان الفناء الكبير الواسع مضاء أيضا .
وبمجرد أن عبرت الممر حتى رأت أمها تنتظرها . بدا عليها القلق،
والحمية ، دون أن تبسم ، سألتها : أين كنت ؟ ردت : لم أستطع
النوم . لم تقل لماذا ولم تطلب هيلين لاجونيل منها ذلك . خلف
القبة الوردية وفكت جدائلها الليلية . قالت هيلين انهم خابروها
فى الهاتف انها لن تذهب بعد ذلك الى المدرسة . وهكذا عرفت ،
أنه يجب عليها ان تخضع للحراسة العامة فى البنسيون ، هناك
الكثير من البنات مثلها . جميعهن من البيض . هناك مصابيح
كبيرة معلقة فى الأشجار . وبعض صالات الدراسة لاتزال مضاءة
كذلك . هناك تلميذات لازلن يعملن . وأخريات يبقين فى الفصل
من أجل الثرثرة . أو يلعبن الكوتشينة . أو يقمن بالغناء .
لاتوجد مواعيد نوم للتلميذات فالجو حار وكأنه نهار . فيقضين
الليل حسبما يشئن . وكما يريدن البنات من الحراس . فنحن
البيضاوات الوحيدات من بنسيون الدولة . هناك الكثير من
الملونات . ترك أغلبهن آباءهن ، فهو اما جندي أو بحار أو موظف
صغير فى الجمر ك أو البريد أو الخدمات العامة . جاء أغلبهن من

مجلس المساعدات الشعبية • هناك أيضا بعض الخلاصات تعتقد هيلين لاجونيل ان الحكومة الفرنسية تتولى تربيتهم كي تجعل منهم ممرضات فى المستشفيات • أو حارسات على اليتامى • تؤمن هيلين لاجونيل أنهم سوف يرسلونها أيضا لتمرير مرضى الكوليرا أو الطاعون • هذا ما تؤمن به هيلين لاجونيل • وتبكي لأنها لا تريد احدى هذه الوظائف • وتكلم دائما كي تنقذ نفسها من البنسيون •

ذهبت لأرى ملاحظة الخدمة ، امرأة شابة ملونة • تراقبنى كثيرا أنا وهيلين • وتقول :

— لن تذهبا الى المدرسة ولن تناما هنا هذه الليلة • نحن مضطرون أن نخبر أميكما • قلت لها اننى لم أفعل شيئا من ناحيتى • ولكن بدءا من هذه الليلة • ومن الآن فصاعدا • سوف أحاول أن أعود كل مساء كى أنام فى البنسيون • واننى كنت على رشك أن أخبر أمى بذلك • نظرت الحارسة الى وابتمت •

وعاودت الكرة • وتم أخبار أمى • فجاءت لتقابل مديرة البنسيون • وطلبت منها ان تتركنى على حريتى فى هذا المساء • والا يهتموا بالساعة التى أعود فيها • ولا يجبروننى ان أذهب معهم فى نزهات يوم الأحد مع نزيلات البنسيون • وقالت : انها طفلة اعتادت على الحرية دائما • وبدون هذا فسوف تفقدنى • أنا أميا ولا أستطيع شيئا ازاء هذا • اذا أردت أن أحتفظ بها فيجب أن أتركها على حريتها • وافقت المديرة لأننى بيضاء • ومن أجل سمعة البنسيون • فوسط أغلب الموتات يجب أن تكون هناك فتيات بيضاوات • قالت أمى أيضا اننى أعمل جديا فى المدرسة طالما أننى جرة هكذا • وعما سيحدث مع ولديها المزعجين • فالأمر جسيم • ودراسة الصغيرة هى الأمل الوحيد الباقي لها •

وتركتنى المديره أقيم فى البنسيون وكأنه فندق .

وبعد قليل أصبحت ارتدى فى أصبعى خاتما كفتاة مخطوبة .
ومع هذا لم تعلق الحارسات بملاحظة . شككن اننى غير مخطوبة .
ولكن الخاتم يساوى مبلغا ثميناً . ولم يشك أحد أنه من الماس
الأصيل . ولم يقل أحد شيئاً بسبب سعر هذا الماس الذى أهدي
الى فتاة صغيرة للغاية .

عدت قريباً من هيلين لاجونيل . تمددت فوق مقعد وبكت
لأنها اعتقدت أننى سوف أترك البنسيون . جلست بجانبها على
المقعد . ودهشت لجمال جسد هيلين لاجونيل المسدد بجوارى .
هذا الجسد الجميل . وقد انطلق سراحه . جسد هيلين لاجونيل
هو أحد الأشياء الأكثر جمالا التى وهبها الله لبشر . شئ لا يقارن .
هذا التوازن بين القوام والطريقة التى بها يحمل الجسد صدرها من
الخارج . كأنهما شيئان منفصلان . لاشئ أكثر غرابة من هذه
الاستدارة الظاهرة فى صدر ممد . هذه الاشياء الخارجية الممدودة
نحو الأيدي . أشبه بأجساد الحمالين الصغيرة أندھش أمام هذه
الروعة . جسد الرجال ذوات التكوينات النحيلة . المحجور عليها .
لا تبرز أبداً مثل تكوينات هيلين لاجونيل . التى لن تبقى طويلاً ، ربما
حسبما أتصور حتى الصيف . هذا هو كل شئ . جاءت من أعالي
الدلتا . فابوهيلين لاجونيل موظف بريد . وجاءت اثناء السنة
الدراسية قبل بعض الوقت . خائفة وهى تجلس الى جوارك . تظل
هناك دون أن تقول شيئاً . تبكى باستمرار . ذات بشرة وردية
وسمراء كالجبل . عرفناها دائماً . وفى كل الأطفال ذوى الجلد
الشاحب الخضرة . والحرارة الشديدة . لم تذهب هيلين لاجونيل
الى مدرسة الليسية . فهى لا ترغب أن تذهب الى المدرسة . فهيلين
لم تتعلم ولم تحصل درسا . ولم تتلق الدروس الاولى فى

البنسسيون • لكن هذا لن يفيد في شيء • تبكى وهي تستند على جسدي • أداعب شعرها • ويديها • قلت لها اننى سأظل معها فى البنسسيون لاتعرف انها بالغة الجمال • هيلين لاجونيل • لا يعرف أهلها ماذا تفعل • يعملون على تزويجها بأقصى سرعة • وجدوا كل الخاطبين الذين يريدونها • ولكن هيلين لاجونيل لا تريدهم • فهي لا تريد أن تتزوج • تريد أن تعود مع أمها • هي هيلين ل • هيلين لاجونيل • فعلت أخيرا ما تريده أمها • انها أكثر جمالا منى • ومن قبعة البهلوان التى ارتديها • والحذاء المديب الطرف • وهي أكثر طلبا للزواج منى • هيلين لاجونيل يمكن أن تتزوج • وان ترتبط بالحياة الزوجية • لكنها تخيفها • قالت لى انها لاتعرف لماذا تخاف ولا تفهم سر ذلك فقد طلب منها أهلها ان تبقى هنا وتنتظر •

هيلين لاجونيل ، لاتعرف أيضا ما أعرفه • انها فى السابعة عشرة • مثلما كنت أحس • ومع ذلك فهي لم تعرف قط ما أعرفه •

جسد هيلين لاجونيل ثقيل • وأيضا برى • وبشرتها رقيقة • أشبه بقشر الفواكه • وهي لاتكاد تحس به • يبدو موهوما قليلا ، بل كثيرا • مما يعطى لهيلين لاجونيل الاحساس أن جسدها يقتلها ويثير فيها الرغبة ان تقوم وتقتل نفسها بيديها • هذه الأشكال من زهور الدقيق • تحملها دون أن تعرف أسرارها • وتكشف هذه الأشياء حتى تعجنها الأيدي وحتى تأكلها الأفواه • دون ان احتفظ بها وان تعرف شيئا عنها • ودون أن نعرف شيئا أكثر عن قوة جسدها الأسطورية • كنت أريد التهام صدر هيلين لاجونيل • مثلما يأكل صدرى فى غرفة المدينة الصينية حيث أذهب كل مساء أهلة فى المعرفة • وان أغمد هذا الصدر المصنوع من زهور الدقيق البارزة فى طرفه •

لقد كهلت على رغبة هيلين لاجونيل .

وكهلت على الرغبة .

رأيتها . وكان لها نفس البشرة التي يمتلكها رجل شولن .
هناك شيئا يشع منه شمس بريئة . تقوم بتفريخ نفسها بشكل
مكرر ، فى كل حركة . وفى كل دمعة . لكل من فشلها . ومن
جهالاتها . هيلين لاجونيل . هى المرأة التى صنعت لهذا الرجل
لدرجة تكاد ان تثير فى داخلى متعة مجردة للنهاية . وبالغة الحدة .
ومن أجل هذا الرجل الغامض من شولن ، من الصين . فان هيلين
لاجونيل تصبح صينية .

لم أنس أبدا هيلين لاجونيل . ولم أنس هذا الرجل قط بعد
أن رحلت وبعد أن تركته . وهذا الوفاء الغامض كان يرجع
الى أنا .

لازلت أيضا فردا فى هذه الأسرة . وهناك سكنت فى منفاى
أكثر من أى مكان آخر . وفى جذبه وقسوته الحادة . والاساءة
التي أثرت فى بشكل عميق . أكثر عمقا من ايمانى بنفسى ، كنت
أعلم اننى سوف أكتب عن ذلك فيما بعد .

سوف يمسك بى هذا المكان يوما ما عندما ينصرم الحاضر .
وأجد نفسى فى مكان آخر . تبدو لى الساعات التى أقضيها فى بيت
الشابات بشولن ، وفى هذا المكان ، أشبه بضوء منعش وطازج .
رغم أنه مكان خائق يعبق بالموت ، مكان للعنف والألم ، واليأس ،
والعار . وهو أيضا مجرد مكان مثل غرفة شولن الذى يطل على
الجانب الآخر من النهر . دفعنى أن أتمنى اجتياز النهر يوما .

لم أعرف ماذا أصبحت عليه هيلين لاجونيل . واذا كانت قد ماتت . سبقتني في الرحيل من البنسيون . قبل سفري الى فرنسا بوقت قليل . عادت الى ولايت . أذكر أن ذلك تم بسبب الزواج . فقد كان عليها ان تستقبل وافدا جديدا من العاصمة . ربما خائنتني ذاكرتي . وأننى أخلط الأشياء التي حدثت لهيلين لاجونيل فيما يتعلق بهذا الرحيل الجبرى الذى دفعته أمها اليه .

حدثتكم ، أيضا ، عما كان عليه ، وكيف كان . كان يسرق من الخدم ، كى يذهب ليدخن الحشيش يسرق من أمنا . يفتش فى الدواليب ، ويسرق كى يلعب القمار . اشترى أبى منزلا فى منطقة بين البحرين قبل ان يموت . وهو الشيء الذى كنا نمتلكه ، لكنه قامر عليه . وباعته أمى كى تسدد ديونها . ولم يكن هذا كافيا . ولم يكف أبدا . وعندما كان شابا حاول أن يبيعنى الى أحد زبائنه فى القبة . ومن أجله أرادت أمى أن تعيش أيضا من أجل أن يأكل . وان ينام فى الجو الحار . وان يسمع أيضا شخصا يناديه باسمه . والممتلكات التى اشترتها له قريبا من منطقة امبواز . عشر سنوات من التوفير . وذات ليلة قامت برهن العقار . ودفعت حصتها . وكل منتجات قطع الأخشاب التى حدثتكم عنها . وفى ليلة أخرى سرق أمى الميثة . كان هناك شخص يفتش فى الدواليب . ويتشممها كالكلاب . كان يعرف كيف يجيد البحث . ويكتشف جيدا ثنايات الحشايا وخباياها . فسرق الأساور وما أشبه الكثير من المجوهرات والأطعمة وسرق من دوو ، والخدم . ومن أخى الأصغر . وسرق منى الكثير . وباعها جميعها . أما هى ، أمه ، فعقب موتها مباشرة أسرع وأحضر موثق العهود . وسط شعور الأسى بالموت . تساءلت كيف استقل بشعوره عن الموت . قال الموثق ان الوصية غير صالحة قانونيا . وانها قد ميزت ابنها على كل الممتلكات . كان الاختلاف كبيرا . وأثار ضجة

فعلياً أن نعرف جميعاً السبب الذى جعلنى أقبل أو أرفض . قبلت
 الأمر . وقمت بالتوقيع وأعلنت موافقتى . أما أخى فقد أخفض
 عينيه وأطلق شكره . ثم بكى . ثم تملكه الحزن لوفاة أمنا .
 وكأنه مخلص لها . وأثناء تحرير باريس . جاء يتابع أعماله
 التعاونية فى وسط باريس . لكنه لم يكن يعرف الى أين يذهب .
 جاء الى . لم أكن أعرف شيئاً عنه . هرب من خطر . ربما أسلم
 نفسه للناس ، ولليهود ، وكل شئ ممكن . فهو انسان رقيق .
 ملىء بالحساسية دائماً بعد ان يتم انتهاكه أو عندما تطلب منه
 خدمة . فى تلك الآونة . كان زوجى معتقلاً . وكنت لطيفة معه ،
 فبقى ثلاثة أيام . ونسيت كل ما فعله وعندما خرجت لم أعلق
 شيئاً . فأخذ يفتش . كنت احتفظ بالسكرو وأرز التموين من أجل
 عودة زوجى ، فتش ونهب . فتش أيضاً فى الدولاب الصغير
 بحجرتى وعثر على ضالته . فأخذ كافة مدخراتنا . خمسة آلاف
 فرنك . ولم يترك لنا شرورى نقيز . ترك الشقة على مصراعها .
 عندما رأيته مرة أخرى لم أكلمه عن ذلك . فالأمر مجلبة لعار
 جسيم . ولم أستطع أن أتحمل الكثير . بعد الوصية المزيفة .
 والقصر المشيد على غرار قصور لويس الرابع عشر والذى قام ببيعه
 من أجل كسرة خبز . لقد زيفت عملية البيت مثلما زيفت الوصية .
 وأصبح وحيداً عقب وفاة أمى . بلا أصدقاء . وهو الذى
 لم يكن له أصدقاء قط . كان لديه نساء فى بعض الأحيان من
 أجل « العمل » فى مونبارناس . وأحياناً نساء لا يعملن . فى البداية
 كان هناك رجال لا يدفعون . عاش فى وحدة شديدة . . وبدأ يتقدم
 نحو الشيخوخة . كان متشرداً . وكانت أسبابه هشة . واتسع
 الخوف من حوله . من كافة الأنحاء . أما معنا فقد أضاع إمبراطوريته
 الحقيقية . لم يكن رجل سطر . كان شريد العائلة . يبحث دائماً
 داخل الدواليب . قاتل بلا أسلحة . ودون أن يقترب اثماً كبيراً .

فالمتشردون يعيشون طالما أنهم على قيد الحياة ، دون ان يتعاونوا مع أحد . ودون احساس بالتعاطف . يعيشون في خوفهم . كان خائفا . وبعد وفاة أمي عاش وجودا غريبا في دورات . لم يعرف سوى صبية المقهى من أجل ممارسة لعبة « النحل » والزبائن الذين يأتون من أجل مباريات البوكر في الصالات الخلفية . بدأ يجمعهم ويشرب كثيرا . ويضرب بعينين مختنقتين . الفم جامع . ولم يحصل على شيء سوى نقود سائلة لا أكثر . وأثناء عام أقام في مبنى صغير أجرته أمي . ظل ينام طيلة عام فوق مقعد فوطيه . سمعوا له أن يبقى هناك . وبقي مدة عام . ثم طردوه .

وأثناء هذا العام ظل يأمل في معاودة شراء ممتلكاته المرمونة . فلعب القمار على قطع الأثاث ، الواحدة تلو الأخرى التي كانت أمي تمتلكها . وأيضا تماثيل بوذا البرونزية . ثم النحاس والأسرة وأخيرا الدواليب والمفارش . ولم يعد لديه شيء بعد ذلك . لم يبق له سوى سترة يضعها فوق ظهره . لا ملأة أو غطاء . وأصبح أكثر وحدة . وطوال عام لم يفتح له أحد باب بيته . فكتب الى ابن عم له في باريس ، كان يمتلك غرفة للخدم في مالشارب . وبعد خمسين عاما حصل على أول وظيفة له . وقبض أول راتب في حياته . حيث عين حاجبا في شركة تأمين بحرية . وظل هناك ، على ما اعتقد ، خمسة عشر عاما ودخل المستشفى . لم يمت فيها . بل مات في غرفته .

لم تكن أمي تتكلم أبدا عن هذا الطفل . ولم تشك أبدا منه . ولم تتحدث عن لص الدواليب الى أحد . فقد كانت مصابة بالأمومة الى حد الهذيان . وحاولت أن تخفيها . ولم تحاول كشف نقاط ضعفها تجاه ابنها . تعلمت الا يعرف أحد ابنها ، مثلما تعرفه ، سوى الله . وهو . تردد ان هذه بذاءات صغيرة . وانها هي دائما

نفس الأم • وأنه أراد أن يؤكد أنه أذكى الأبناء الثلاثة • والأكثر
« فنا » والأكثر نعومة وأيضاً الأكثر حبا لدى أمه • وهذه النقطة
بالتحديد لم يفهمها بشكل أفضل • رددت : لا أعرف ماذا ينتظرون
من الولد • انهم لا يعرفون نيته • فهو يتمتع بحنان بالغ العمق •
وعاودنا اللقاء مرة أخرى • حدثني عن أخى الصغير المتوفى •
وقال : الموت ، ياله من أمر مرعب • شئ غير محتمل • أخونا
الصغير ، صغيرنا بولو •

واستعدنا صورة فى أسرتنا ، صورة تناول الطعام فى سادك •
ناكل ثلاثتنا على مائدة فى قاعة الطعام • كانا فى السابعة عشرة
والثامنة عشرة • لم تكن أمنا معنا ينظر إلينا ونحن نأكل : أخى
الصغير وأنا • ثم وضع شوكرته ولم يعد ينظر شئ الى أخى
الأصغر • نظر إليه وهو يدقق فيه طويلا • ثم قال له فجأة ،
وبهذه شديداً ، شيئاً ما مرعباً ، كانت الجملة حول الطعام ،
أخبره أنه يجب أن ينتبه • وأنه يجب ألا يأكل بينما لم يرد عليه
الأخ الأصغر بشئ • فاستكمل كلامه • وذكره أن قطع اللحم
الكبيرة من نصيبه ، وأنه يجب ألا ينسى هذا • تساءلت : ولماذا
ليس أنت ؟ فأجاب : الأمر هكذا • صحت : كم أود أن تموت •
لم أستطع استكمال طعامى • ولا أخى الصغير • انتظر أن يجزؤ
أخى الأصغر ويتفوه بكلمة ، كلمة واحدة • فشئ قبضتيه المتأهبتين
فوق المائدة كى يلكمه فى وجهه • ولم يقل الأخ الأصغر شيئاً •
كان شاحباً للغاية • وتكاد أهدابه أن تبلل بالدموع •

مات فى يوم غائم • اعتقد كان فى شهر ابريل • فى
الربيع • جئى هاتف • لا جديد • لم يقل شيئاً آخر • عشر عليه
ميثا • ممدداً فوق الأرض فى غرفته • كان الموت فى مقدمة نهاية
حكايته • من حياته التى مارسها • لقد مات بالنسبة لى قبل ذلك

بكثير . حدث ذلك عندما مات أخى الأصغر . رددت بكلمات فقهورة :
كل نسيء هالك .

طلبت أن يتم دفنها معه . لا أعرف ماذا يقصد . وفى أى
مقبرة . عرفت ان هناك مقبرة واحدة فى منطقة اللوار . وتم دفن
الاثنين فى نفس المقبرة . الاثنان . فقط . وحدهما . . . وكان الامر
غير محتمل بالمرّة .

حل المغرب فى نفس الساعة من السنة . كان قصيرا ، وبالغ
القبح . فى موسم المطر . وطوال اسابيع لم تنقشع الغيوم . وتلتف
السماء فى ضباب كثيف لا يمكن لضوء القمر أن يخترقه . وفى
موسم الجفاف تبدو السماء عارية ، مكشوفة بأكملها . وكانت
الليالى غير القمرية ، تبدو قاتمة . وشديدة الغيوم . كأنها مرسومة
بشكل متواز فوق الأرض ، والمياه ، والطرق ، والجدران .

أتذكر الأيام بصعوبة . . ضوء الشمس الكامل المكسو
بالألوان . كانت الليالى ، على ما أذكر ، زرقاء اللون وتبدو السماء
بعيدة . وتتلبد السحب الكثيفة وكأنها تغطى كل أرجاء الكون . أما
السماء بالنسبة لى فقد كانت السحب فيها أكثر لمعانا وهى تجتاز
حاجز اللون الأزرق . وتذوب كل الألوان داخلها مثلما كان يحدث
فى فنلونج . عندما كان الحزن يستبد بأمى ، كانت تركيب الدراجات
الخفيفة . ونذهب الى الريف لنرى ليل فصل الجفاف . كنت
أشعر آننى محظوظة ، فى هذه الليالى ، لأن لى مثل هذه الأم . حيث
ينسأل الضوء من السماء فى حركة نقية شفافة وسط أعصار
الصمت والسكون . وتبدو السماء زرقاء . وأنا سوف نمسك
زرقنتها بأيدينا . كانت السماء ترعد باستمرار وسط وميض
الضوء . ويضىء الليل كل شئ . يضىء الريف بأكمله بطول شط
النهر حتى أبعد حدود الرؤية . وكان لكل ليلة سميتها الخاصة .

ويمكن لكل انسان أن ينادي زمن الأبدية . أما صوت تلك الليالي
فهو كنباح كلاب القرية . تنبح بشكل غامض . وتتردد النباحات
من قرية الى أخرى حتى ترتفع الى أعنان السماء ، طيلة الليل .

كانت تسقط في ممرات الفناء ظلال كثيفة أشبه بلون الحبر
الأسود . وكانت الحديقة مليئة بأشجار التين التي تبرق كأنها
المرمر . أما المنزل فكان أثريا . وكأنه كالمقابر . ويسنير أخى
قريبا منى . وهو ينظر بشكل ملح نحو الباب المفتوح الذى يؤدى
الى الشارع الخاوى .

وذات مرة لم يقف أمام المدرسة . كان السائق وحده فى
السيارة السوداء . أخبرنى أن الأب مريض ، وأن سيده الصغير قد
سافر الى سادك . أما هو ، السائق ، فقد صدر اليه الأمر ان يبقى
فى سايجون كى يصحبنى الى المدرسة . وأن يذهب الى البنسيون .
وعاد السيد الصغير . ومن جديد جلس فى المقعد الخلفى للسيارة
السوداء . وهو يدير وجهه الى الناحية الأخرى حتى لا أرى النظرات
الفارقة دوما فى الخوف . تعانقنا دون أن نتبادل كلمة واحدة .
تبادلنا القبلات ، ونسينا أنفسنا . تعانقنا أمام المدرسة . وفى
أثناء القبلة بكى ، فالأب سوف يعيش . كان أملة الوحيد أن يذهب ،
طلب منه هذا . توسل اليه أن يجعله يحتفظ بى معه . فوق
جسده . أخبره ، لعله يفهم ، أن عليه أن يعيش على الأقل تجربة
واحدة عاطفية مثل هذه خلال حياته الطويلة . وأنه من المستحيل
أن يسمح له بأمر آخر . توسل اليه أن يتركه يعيش حياته . مرة
واحدة . فى تجربة عاطفية كهذه . فى هذا الجنون . هذا الحب
المجنون الذى يكنه لفتاة بيضاء صغيرة طلب منه أن يمنحه الوقت
كى يحبها أكثر قبل أن يعيده الى فرنسا . وأن يتركه على سجيته ،
لعام آخر . لأنه ليس من السهل عليه أن يترك هذا الحب ، فلاحب

جديد للغاية • وهو فى قمة عنفوانه • وهو أكثر قوة من أن
ينفصل عنه جسدياً • ومع هذا فالأب يعرف ، جيداً ، أن هذا
لن يفيد قط •

ردد أبوه • أنه يأمل لو رآه ميتاً •

وتحسبنا معاً بيهاء « الجراكل » الطازجة • وتعانقنا ، وبكىنا
لدرجة الموت • ولكن هذه المرة بمتعة لامثيل لها • ثم حدثتسه •
أخبرته ألا يندم على شيء وذكرته ما يجب عليه أن يقوله • فأنا أيضاً
لابد أن أرحل يوماً ما وأنى لا يمكن أن أتعلق من عنقى • قال
ان الأمر سيان لديه • وان كل هذا سوف يمر • وأخبرته
آنذاك أن لى رأى الدائم فى أبيه • وأنى أرفض أن أبقى معه •
ولم أشرح الأسباب •

كان الطريق طويلاً فى فنلونج • ينتهى عند نهر الميكونج •
يبدو الطريق خاوياً دائماً فى المساء • هذا المساء وفى كل مساء •
كانت الكهرباء مقطوعة • كل شيء يبسداً هكذا • وما أن أركب
الطريق • وما أن ينفلق الباب الخلفى • وأتابع انقطاع الكهرباء •
حتى أجدى ، وأجدى وأنا خائفة من الظلام • أجدى بأكثر وأكثر
سرعة • وفجأة أعتقد أننى أسمع من يجرى خلفى • وأتأكد أنه
شخصاً يجرى خلفى مقتفياً خطاى • يجرى ، وأستدير وأراه •
انه امرأة عملاقة • باللغة النحافة • نحيفة كاللوتى • تضحك وهى
تجرى • حافية القدمين • تجسرى خلفى كى تلحق بى • أننى
أعرفها ، فهى مجنونة مكتب البريد • مجنونة مديسة فنلونج •
سمعت أنها تتكلم طيلة الليل • وتنساق فى النهار • انها دائماً
هناك فى هذا الطريق عند الحديقة • تجسرى وهى تصرخ بلغة
لا أعرفها • الخوف هو كل ما أستطيعه • لعل الساعة هى الثامنة •
أسمع ضحكاتها المجلجلة وضياحات الفرح • بالتأكيد أنها تعجب أن

تتسلى بي . لنقل ان هذا الخوف يخترق شسجاعتى وقوتى .
وكل ما أردده . أنه يمثل الذكرى لأمر أكيد يكمن فى داخلك
تماما . وأحس أن المرأة تكاد تلمسنى . حتى ولو لمسة خفيفة ،
فى يدى . أمر ، بدورى ، بحالة مضاعفة لحالة الموتى . وحالة
من الجنون . واصل الى الحديقة القريبة من المنزل وأصعد درجات
السلم وآخر مغشيا على عند المدخل . وطوال عشرة أيام لا أستطيع
أن أحكى لأحد كل ما حدث لى .

فى فترة مبكرة من حياتى . كنت أخاف من رؤية الأشياء
تتعاظم فيما يتعلق بأمى ، لم أسم هذه الحالة قط ، والذي أوصلها
الى هذا الحال هو أنها انفصلت عن أبنائها . أعتقد أن هذا دفعنى
أن أعرف ما يمكن أن يحدث لى فى اليوم التالى ، ليس لأخوى .
ولكن لأن أخوى لن يعرفا كيف يحكمان على هذه الحالة .

حدث ذلك بعد عدة أشهر من انفصالى عنهم . حدث فى
ساييجون . فى وقت مبكر من المساء . كنا نجلس فى الشرفة
الكبيرة فى المنزل الذى يطل على شارع تسار . كانت دوو
موجودة . نظرت الى أمى . لم أعرفها بسهولة . بدت كأنها تائهة
وقد سقطت سقطة بالغة القسوة . لم أعرفها بالمرّة . ظهرت هناك
فجأة . قريبة منى . هناك شخص آخر يجلس مكان أمى . لم تكن
أمى . ولكنها امرأة لها نفس مظهرها . لم تكن أمى أبدا . كان
يبدو عليها جنون خفيف . تنظر ناحية الحديقة الى بقعة ما فى
الحديقة . تبدو وكأنها ملفوفة تقريبا بحادث لم الحظه أبدا .
لا يزال يرتسم عليها بعض ملامح الشباب . والنظرات السعيدة .
بما بسبب تمسكها بالعفة التى اعتادت ان تحافظ عليها . كانت
جميلة . تجلس دوو على مقربة منها دوما . بدت دوو وكأنها
لم تلاحظ شيئا . لم تحس بالرعب أبدا لما رددته عليها وعن

ملاصحتها ، وما يبدو عليها من ملامح السعادة . وعن جمالها .
جاءت من حيث تجلس نفسها على مقربة من أمي . أعرف أن شخصا
آخر ليس في نفس مكانها . ولكن بالضبط هذا الكائن البشري
الذي لم تحل محله . لقد اختفت هوية أخرى . وكنت لا أملك
الوسيلة لأن أجعلها تعود . وأن تبتدأ في العودة الى وعيها .
لم يحدث تغيير وسط الصورة . لقد أصبحت نصف مجنونة .
ففي وقت الصراخ تصرخ بصوت ضعيف ، ثم تحطم الزجاج ويعلو
الصراخ بشكل مميت فوق الأشياء . ثم تستعيد أمي رشدها .

عرفت كل اناس المدينة ، خاصة شحاذين الطرق ، كل
شحاذي المدينة وحقول الأرز التي كانت تحيط بسيام وساحل
ميكوئيج . عندما خالفتهم أحسست بالخوف الذي استبد بي من
جهات عديدة . تسافر أمي دائما الى كلكتا . المدينة التي جاءت
منها . كانت تنام دائما في ظل أشجار التفاح الطويلة . في أثناء
الفسحة أجلس دائما قريبة من أمي . تعتنى بقدميها اللتين قرصهما
الدوز . ويعف عليها الذباب .

تجلس على مقربة منها فتاة التاريخ الصغيرة . حملتها
مسافة ألفي كيلومترا . لاتأخذ منها شيئا . بل تعطيها . تردد :
أذهبى . تعالى . كان لديها الكثير من الأطفال . أما الآن فلم يعد
منهم أحد . ماتوا جميعا أو تم التخلص منهم . والسبب الزكام
الذي يخفى في نهاية العمر . لم تمت هذه المرأة التي تنام تحت
أشجار التفاح الطويلة . سوف تعيش أبدا الدهر . ستموت في
منزلها . وهي ترتدى ثوبا من الدانتيل . وتبكي .

تجلس عند منحدر حقول الأرز التي تملأ الشقق . تصرخ
وتضحك ملء صدقيها . لها ضحكة رنانة . ضحكة توقظ الموتى .
وتوقظني أيضا . أشبه بضحكات الأطفال . ظلت في حقول البنغل

أياماً وأياماً . هناك أشخاص بيض في حقول البنغل ، تتذكر أن
البنغل يقدم طعاماً للشحاذين . استيقظت ذات يوم قصير النهار
وأخذت تمشي . ثم رحلت ، ذهبت كي تعرف السبب . اتجهت
ناحية الجبل . واجتازت الغابة . سارت في الممرات التي تمتد على
طول قمة سلسلة جبال سيام . حاولت أن ترى ، لعلها تشاهد
الشمس الصفراء . التي تصبح خضراء على الجانب الآخر من
الجبل . وسارت ثم بدأت في النزول ناحية البحر . نحو الأفق .
وأوسعت من خطاها المتعجلة التي تترك فوق أرض الغابة أثراً
خفيفاً . ظلت تمشي وتمشي . رغم أن الغابات موبوءة بالطاعون .
وشديدة الحرارة . لا أثر هناك للرياح . والبحر ملوث ، وهناك
زوابع محملة بالناموس . والأطفال الميتين . والمطر المتساقط
يوميماً . ثم هذه الدلتا ، أنها أكبر دلتا على سطح الأرض . ذات
أرض سوداء . اتجهت ناحية شيتاجون ، وتركت الأرض المعبدة
والغابات ، ودروب الشاي . والشمس الحمراء . وجرت في خط
مستقيم نحو ملتقى الدلتا . ووصلت إلى ضاحية مليئة بالحشرات
الصغيرة . وجدت نفسها أمام البحر . فصرخت . ثم ضحككت من
نقيق الضفادع . وبدافع السخرية شاهدت في شيتاجون سفينة
ركبتها لتعبر البحر ، ود الصيادون مسحبتها . فعبرت معهم
الخليج البنغالي .

هكذا بدأت ، ثم عاودت من جديد ، حدث كل هذا في جنوب
كلكتا .

فقدناها . ثم وجدناها مرة أخرى . عثرنا عليها نائمة خلف
سفارة فرنسا في هذه المدينة . تمددت في حديقة . واحتفظت
معهها بمؤونة ضخمة من الأطعمة .

ظلت هناك طيلة الليل . ثم ذهبت إلى منطقة جانج عندما

أشرقت الشمس • ظلت محتفظة بروح السخرية والتهكم دوما •
لم تغادر المكان • فهنا تأكل وتنام ، والليل هادئ • لذا ظلت
قابعة في حديقة الورود •

جئت يوما اليها ، كنت في السابعة عشرة • يسمونه الحى
البريطانى • وهذه هى حديقة السفارات • مليئة بالجناين
والصخور الكروية • ظلت تضحك مثل ما يفعل المصابون بمرض
الجذام ونحن نمشى معا على حافة نهر الجانج •

كنا فى ميناء كلكتا • وعندما أصاب العنارة عطب • قمنا
بزيارة المدينة من أجل قضاء بعض الوقت • ثم عاودنا الرحيل فى
مساء اليوم التالى •

عمرى خمسة عشر عاما ونصف • انتشر الخبر بسرعة فى
مكتب سادك • لم ينقصنا سوى هذه الفضيحة • رددوا :
« ياللعار » فالأم قد فقدت الاحساس • وهذه ليست طريقة لتربية
بنت صغيرة • ياللطلة المسكينة • نحن لانصدق • هذه القبة
لم تعد بريشة • ولا أحمر الشفاه • كل هذا لايعنى سوى شئ
واحد • هو محاولة جذب الأنظار • وجلب المال لشقيقىها المتشردين •
يقال انه صينى • ابن ملياردير • يسكن فى فيلا تطل على
الميكونج • مبنية من السيراميك الأزرق • حتى أبوه • فبدلا من
أن ينسب لأبنة الشرف الا أنه لا يريد هذه الفتاة لأبنة • فهى
ليست سوى ابنة لأسرة من المتشردين البيض •

ينادونها بالسيدة • جاءت من سفانخت • عليها أن تلحق
بزوجها فى فنلون • الذى كان يعمل مساعدا للمدير فى سفانخت •
لم يكن محبوبا بالمرّة • قتلته طلبة رصاص • وانتشرت الحكاية
حتى وصلت الى مكتب بريد فنلون • كان ذلك يوم رحيله من

سفانخت الى فنلون . أصابته الرصاصة فى القلب . فى أكبر مكان
بالمكتب ، ووسط النهار . كان قد عين فى فنلون بسبب علاقته
بالبينات الصغيرات . وأخبر زوجته أنه قد آن الأوان لكل هذا
ان يتوقف .

حدث كل هذا فى حى سىء السمعة بشولن . ففى كل مساء .
تذهب هذه الداعرة الصغيرة الى مليونير صينى قذر كى يداعب
جسدها . انها لا تزال تلميذة فى المدرسة حيث توجد أيضا بنات
صغيرات من البيض . بنات صغيرات رياضيات يتعلمن العوم فى
حمام السباحة بالنادى الرياضى . وذات يوم صدر اليهن أمر
ألا تتحدث أى منهن مع ابنة ناظرة مدرسة سادك .

وفى الفسحة ، تنظر ناحية الشارع ، وتتكى وحدها على
ركيزة البهو ، لاتقول شيئا عن هذا لأمها . وتستمر السيارة
الليموزين السوداء ، التى يملكها ذلك الصينى القادم من شولن ،
فى الحضور الى المدرسة . ينظرون اليها وهى تذهب . دون أن يبدى
أى اعتراض أو مقاومة : فلا توجه أى واحدة منهن كلمة واحدة
اليها . بدت هذه العزلة بشكل واضح فى ذاكرة سيده فنلون .
جاءت ، هناك وهى فى الثامنة والثلاثين : آخر مرة رأت فيها الطفلة
حين كانت فى العاشرة . أما الآن فهى فى السادسة عشرة
على ما تذكر .

تجلس المرأة فى شرفة غرفتها . تتطلع الى الدروب الطويلة
لنهر الميكونج . أراها عقب عودتى من سماع موعظة دينية معى
أخى الصغير . توجد الغرفة وسط قصر كبير ذى شرفات مغطاة ،
ويقع القصر وسط حديقة تكسوها أزهار الورد والنخيل . نفس
الاختلاف يفصل بين المرأة والشابة ذات القبعة المسطحة عن موظفى
مكتب البريد . حتى عندما يتطلع الاثنان ناحية فرعى النهر الطويلين

فيشعران بنفس العزلة • تشعر كل منهما أنها معزولة تماما •
وأنها ملكة • وأن معاناتها تجيء من داخلها • كلتاهما تحس بذلك •
الأمور المباحة من واقع طبيعة هذا الجسم الذي داعبه العشاق •
وقتلته الأفواه • فيشعر بالجوع للمتعة لدرجة الموت • يقلن ان
المرء يموت موتاً غامضاً عندما يفتقد العشاق الى الحب • هذه هي
حالة الرغبة حتى الموت • انه يهرب منهما • من حجرتهما • هذا
الموت البالغ القوة الذي يعرفان فيه واقع المدينة الحقيقي • ومكاتب
البورصة • والأماكن الرئيسية • وحفلات الاستقبال ، وحفلات
الرقص التي تنظمها الجهات الرسمية •

جاءت هذه المرأة من أجل استعادة أجواء الحفلات الرسمية •
اعتقدت انها فعلت ذلك وان زوجها شاب سفانخت قد دخل دائرة
النسيان • واستعادت المرأة أمسياتها التي تمسكت بها لترى
نفسها قادرة وجذابة لكل الناس • ومن وقت لآخر ، ومن حين وحين
تخرج من وحدتها الرهيبة لتذهب الى مكاتب الأدغال الضائعة •
سهول حقول الأرز حيث الخوف ، والجنون ، والحمى والنسيان •

تخرج في المساء من المدرسة • تركب نفس السيارة للموزين
السوداء • ترتدى نفس القبعة البالية الطفولية • ونفس الحذاء
المدبب الخاف • تذهب مع الملياردير الصيني • يضع أمامها مروحة •
وبعد أن تعود الى البنسيون لايعاقبها أحد أو يضربها • أو يفسد
قبعتها أو يهينها •

في آخر الليل الذي قتل فيه ، في فناء المكتب الكبير حيث
انطفأت الأنوار • وقفت ترقص • ثم حل النهار • ثم مر النهار •
وكشفت الشمس كل شيء • ولم يجرؤ أحد أن يقترب من الجثة ،
الشرطة هي التي فعلت ذلك وسقط النهار • بعد وصول قارب
الإنقاذ من السفر • لم يعد هناك أحد • وخلا المكان تماما •

قالت أمى لمديرة البنسيون : هذا لايعنى شيئاً . كل هذا
لا أهمية له . هل رأيت هذه الأثواب الضيقة المستعملة . وهذه
القبعة الوردية . والحذاء الذهبى ؟ هل كل هذا على ما يرام ؟
كانت الأم تصاب بنشوة من الفرحة حين تتكلم عن أبنائها وعن
جاذبيتهم الشديدة . بينما وقفت ملاحظات البنسيون الشابات
يستمعن الى الأم بشغف . وتكلمت الأم . وأحاطها كل رجال
المكتب . المتزوجون وغير المتزوجين يلتقون حولها . يريدون هذه
الصغيرة . هذا الشيء الصغير . الذى لم تتشكل هويته بعد .
انظروا فهى لا تزال طفلة . كيف يقول الناس انها تجلب العار ؟
أما أنا فماذا أقول : فكيف لهذه البراءة أن تجلب أى عار ؟

وتتكلم الأم عن الفساد المكشوف وتضحك . ثم عن الفضيحة
وعن هذا التهريج ، وهذه القبعة المنزوعة الأطراف ، وهذه الأناقة
الشديدة لطفلة تعبر النهر . وتضحك من هذا الشيء الذى لا يقاوم
اغراؤه . هنا فى المستعمرات الفرنسية . اتكلم وتتحدث عن هذه
البشرة البيضاء . وعن هذه الطفلة الصغيرة التى لا تزال حتى الآن ،
تختفى وسط الأدغال . وتصل فجأة ، ذات يوم مهيب ، وترتكب
أمرا مشبها فى المدينة تحت وسمع وبصر الجميع . مع ابن الأوباش
من الصينيين الأثرياء . وترى الخاتم الماسى فى أصبعى مثلما تفعل
الفتاة التى تعمل فى البنك فتبكي .

عندما رأت الخاتم الماسى قالت بصوت خفيض : انه يذكرنى
بخاتم سوليتير صغير جاءنى يوم خطبتى من زوجى الأول . قلت :
اسمه « السيد ظلام » . ضحكنا . هذا هو اسمه . كما قالت لى .
وهو أمر حقيقى خال من الهذر .

تبادلنا النظرات فترة طويلة . ثم ارتسمت عليها ابتسامة
بالغة الرقة . ممزوجة بسخرية ومطبوعة بعرفان جميل عميق تجاه

أبنائها ولكل ماتنتظره منهم • أما أنا فقد كان يجب على أن أخبرها
عن شولن فيما بعد •

ولم أفعل • ولم أخبرها بذلك أبدا •

وانتظرت طويلا قبل أن تكلمنى • ثم فعلت ذلك • بكثير من
المودة : أتعرفين أن كل شيء قد انتهى • وانك لايمكن ، أبدا ، ان
تتزوجى هنا فى المستعمرة ؟ هزرت كتهفى وضحكت • وقلت : يمكن
أن أتزوج فى أى مكان عندما أريد • وأشسارت بيدها رافضيه
وقالت : لا ، هنا ، كل الناس يعرفون • هنا لا يمكنك نظرت
نحوى وقالت كلمات لا تنسى : هل كنت تحبينه ؟ أجبت : أجل •
كنت أثير اعجابه أنا أيضا • وهنا قالت : لقد أثرت اعجابه لأنك
تستحقين ذلك •

ثم سألتنى : هل كنت تقابلينه من أجل النقود ؟ ترددت
ثم قلت ان هذا كان من أجل المال • نظرت الى مليا • ولم تصدقنى
وقالت : أنت تختلفين كثيرا عنى • فقد كنت أكثر منك ذكاء
خاصة بالنسبة للدراسة • كنت حادة للغاية • وقد ظللت امارسها
مدة طويلة • وفيما بعد فقدت مذاق المتعة •

حدث ذلك فى أحد أيام الأجازات بسادك • كانت تستند
فوق مقعد طويل من أجل الاسترخاء • ومددت قدميها فوق مقعد •
كانت قد تركت الباب مفتوحا حتى يهب النسيم من الصالة ،
صالة الطعام • كانت فى أقصى حالات الاسترخاء • وصفاء الذهن •
فجأة لاحظت ابنتها الصغيرة • فانتابتها الرغبة فى الحديث معها •

لم تكن بعيدة عن النهاية • فعما قريب عليها أن تغادر أراضى
السود والرحيل الى فرنسا • نظرت اليها وهى تغفو •

ومن وقت لآخر ، كائنات أمي تتمتم : سنذهب غدا الى المصور .
تشكو من أسعار المصور ومع هذا تذهب . انه يرفع دائما أسعار
صور العائلات . كانت تتطلع الى الصور . ولا نتبادل النظر .
فقط ننظر الى الصورتين كل منا منفصلا . ودون أى تعليق . كنا
ننظر اليهما ونرى بعضنا ونرى بقية أعضاء الأسرة الواحدة
مجتمعين . ونعاود الرؤية عندما كنا صغارا جدا في الصور القديمة .
ونتطلع الى الصور الحديثة . لقد اتسعت الهوة فيما بيننا . وفي
مرة من المرات كانت الصور مرتبة بعناية في الدولاب لقد التقطت
أمي الصور كي يمكننا أن نرى بعضنا ولنلاحظ اذا كان الكبير قد
نال منا . تنظر الينا مليا مثلما تفعل أمهات أخريات لأطفال آخرين .
ونقارن الصور ببعضها . وتتكلم عن كل واحدة منها . ولا يرد
عليها أحد .

لم تصور أمي أحدا سوى أبنائها . لا أحد قط غيرهم .
فليست لنا صور في فنلون . ولا في الحديقة أو النهر . أو الطرق
المستقيمة المحفوفة بأشجار التمر هندی على الساحل الفرنسى .
ولا أى منزل وحتى حجراتنا في المنزل الأبيض ذى الأسرة البيضاء
ذوات الأعمدة الذهبية اللامعة ، كذلك فصول المدرسة التى بها
بالونات حمراء اللون . أو الأباجورات الكتانية الخضراء . لا توجد
أى صورة فى هذه الأماكن التى لاتصلح للتصوير فهى فى رأيها
أماكن تعكس القبح . وتهرب منها . لقد عسكرت أمي وانتظرت ،
كما قلت . وأقامت فيها . وخاصة فى فرنسا فى المناطق التى ظلت
تتكلم عنها طيلة حياتها . وتحتل مكانة هامة فى نفسيتها .
وغمرها ، وحزنها . بين منطقتى « كاليه » و « بين البحريين »
وعندما تتوقف تعلن انها سوف تستقر فى منطقة اللوار . وان
غرفتها هناك ستكون نسخة مكررة من غرفتها بسساديك . تلك
الغرفة المربعة التى عليها ان تنساها .

لم تصور الأماكن قط ، ولا الخلفيات ، لشيء سسوانا :
أولادها . وفي أغلب الأحيان كانت تقوم بـ « لنا » كي تلتقط
صورة . فالصورة الجماعية أقل تكلفة ، فضلا عن بعض صور
الهواة التي تلتقط لنا من طرف أصدقاء أمي . أو الزملاء الجدد
الوافدين الى المستعمرة من أجل التقاط المناظر الطبيعية بالمنطقة
الاستوائية ، حيث أشجار جوز الهند والحمالون وهم يرسلونها
عادة الى أسرهم .

كانت أمي تنظر بوله الى صور أبنائها الملتقطة أثناء الإجازات .
لم تكن تريد أن نذهب الى المدرسة . فلم يعرفها أخواي أبدا .
أما أنا ، الصغرى ، فقد جرائني اليها ، ثم فيما بعد ذهبت اليها ،
لأن خالاتي ، بسبب سلوكي المشين ، لم يردن أن يدفعن يقاتهن
لرؤيتي . ولم يعد أمام أمي سوى الصور التي تفرجنا عليها .
تتطلع اليها أمنا بشكل عقلائي . ومقتنع ومنطقي . وتفرج لبنات
عمومتها من الأوربيات صور أبنائها . كان عليها أن تفعل ذلك .
فتفعل . فبنات عمومتها هن الباقيات من أهلها . تفرجهن على
صور أعضاء أسرته . ترى هل لاحظن شيئا في هذه المرة ، غير
هذه الطريقة في التواجد ؟ عبر هذا الموقف الذي نسلكه حتى
النهاية دون أن تتخلى أبدا عنه . وان تتركه . فبنات العمومة يمكن
أن ينفقن ، حسب اعتقادي ، ووسط هذه الشجاعة ، والعبث ،
أجد نفسي في قلق عميق .

وعندما أصابتها الشيخوخة وأصبح شعرها أبيض كانت
لا تزال تذهب الى المصور . تذهب بمفردها . تلتقط لها الصور
وهي ترتدى ثوبها الأحمر الداكن الجميل وقطعتين من الحلي ،
بسلسلة البروش الذهبية واليشم . قطعة من اليشم المرصع
بالذهب . وتبدو في الصور وقد مشطت شعرها جيدا وخلا وجهها
من التجاعيد . وذهب الأهالي القادرون أيضا الى المصور بدافع

اثبات الوجود . عندما أدركوا أن الموت يقترب . كانت الصورة كبيرة . وكانت الخلفية مليئة بالمناظر . وجدوا أنفسهم محاطين بطارات مذهبة وتحدهم ديكورات تعود لزمان الأجداد . . . والتقطت صور للجميع . رأيت الكثير من هذه الصور . يبدو جميعا وكأنهم نفس الشخص في الصورة الواحدة . كان التشابه حالة هysterية . ليسوا متشابهين فقط في الشيخوخة . بل في وجوههم التي أجريت لها عملية رتوش . وبشكل خاص في الوجه . أما الرتوش التي لم تزل . فقد تحللت بفعل الزمن . كانت الوجوه تتحرك دائما بنفس الطريقة كي تواجه الخلود . لقد حجبت تماما . وعلاها الاصفرار . هذا ما كان يريد الناس . فبسبب هذا التشابه تترد الذكرى عبر أعضاء الأسرة . هي أشبه بشاهد على تفسرد الزمن ومدى أثره . انها متشابهة ومتقاربة لدى جميع أفراد الأسرة الذين يجب أن تكون لهم بصمة . فضلا عن ذلك فإن كل الرجال يرتدون نفس الأشرطة . أما النساء فيرتدين نفس الكعوب وقد مشطن شعورهن بنفس التسريحة المسحوبة . يرتدى الرجال والنساء دائما نفس الأتواب ذات الياقة الجافة . ويبدو عليهم دائما نفس المظهر الذي تعرفت عليه أيضا من بين كافة الظواهر . وهكذا كانت تظهر أمتى في الصور مرتدية ثوبها الأحمر مثلهم بشكل ينم عن النبيل . وعن أشياء أخرى محيت مع الزمن .

لم يتكلم أبدا عنها . انه شيء تم الاتفاق عليه . ولم يحاول مطلقا أن يواجه أباه كي يزوجه . لم يفعل هذا ازاء أى شخص . حتى بالنسبة للمهاجرين الصينيين الذين يشرفون على ادارة تجارة الكتب . وهذه الشرفات الزرقاء المربعة الأكثر ثراء تطل على أرض الخيرات الممتدة فيما بين سادك وشولن . في العاصمة الصينية عاصمة الهند الصينية الفرنسية . كان رجل شولن يعرف ان القرار هو قرار أبيه . وان الأطفال سيظلون صغارا وأنهم

بلا تجربة • وعند أول منعطف سوف يسمع ان الرحيل الذى سيفصلهما هو فرصة ذهبية من أجل حكايتهما • وان هذه ليست من الطراز الذى عليه أن يتزوجه • ويجب عليه أن يهجرها وينساها • وان يعيدها لعشيرتها من البيض ، لاختوها •

ومنذ أن أصابه الهوس بجسدها ، لم تعان الصغيرة فى امتلاكه • وامتلاك بشرته الرقيقة • ولم تعان من أمها التى تقلق كثيرا مثلما كانت تفعل فيما قبل • وكأنها اكتشفت أن هذا الجسد جذاب بشكل معقول ، وربما أكثر من أى جسد آخر • خاصة بالنسبة لعاشق شولن • وردد أن المناخ فى السنوات الماضية لم يكن محتملا • لقد صنعت منها أمها فتاة صغيرة ، فى هذا البلد بالهند الصينية • انه ناعم القبضة • وكثيف الشعر لدرجة أنه يستمد قوته من شعره الطويل كشعرها • أما هذه البشرة الملساء فى كافة جسده فقد ولدت من مياه المطر واحتفظ بها من أجل هموم النساء • والأطفال • قال ان نساء فرنسا لديهن بشرة جلد أقل نعومة • بل انها أكثر خشونة • قال أيضا أن سبب هذا هو التهام الغذاء الفقير فى المنطقة الاستوائية • غذاء مصنوع من السمك والفاكهة • كما أن للملابس القטיפية والحريرية التى يرتديها لها تأثير • فهى ملابس رفلة • تترك الجسد بعيدا عنها • • حرا وعاريا •

التف عاشق شولن حول المراهقة الصغيرة • دفعته المتعة الى الارتباط بزمناه وحياته • لم يكن يحدثها كثيرا أعتقد أنها لاتفهم كثيرا ما يقوله لها • وعن هذا الحب الذى لم تكن تعرفه جيدا • لم يجد الحديث عنه • اكتشف انها لم يتكلما أبدا • أجل • أعتقد أنه لم يعرف • واكتشف أنه لايعرف •

نظر اليها • عيناها منغلقتان • نظر اليها من جديد ، تنسم وجهها ، وتنسم الطفلة • وعينيها المنغلقتين • تنسم أنفاسها •

هذا الهواء الساخن الذى يخرج منها . استطاع ان يميز بشكل
قاتل كل حدود هذا الجسد . انه ليس مثل بقية الأجساد .
لم ينته بعد . فلاتزال الحجرة باقية . ليست هناك أشكال ثابتة .
عليه أن يفعل فى كل لحظة . لم يكن موجودا فقط حيث يراها .
كان أيضا فى كل مكان ، يتمدد تحت سمعها وبصرها . يمارس
اللعبة ، لعبة الموت . الموت المرن . يرحل فى كل مكان باحساس
المنعة . لا يملك أى سوء للنية . وصاحب ذكاء خارق .

نظرت الى كل ما يفعله بى . لم أفكر قط فيما يمكن أن
يفعله بهذه الضورة . اقتفى أثر أملى ورغبتى . وهكذا أصبحت
طفلة . وأصبح شئنا آخر بالنسبة لى . بدأت فى معرفة المتعة
التي يصعب التعبير عنها . أما وراء هذا . فهناك رجل آخر عليه
أن يمر بجوار الغرفة . شاب قاتل . لم أعرفه بعد . لا يبدو منه
شئ أمام غينى . لعله ضبى أو شاب يحب أن يمر بجوار الغرفة .
أحسن أحيانا أننى أعرفه . قد يكون موجودا . وأخبر عاشق شولن
بذلك . أحدثه عن رفته المتناهية . وعن شجاعته فى الغابة .
وأثناء النهار . الغابة المليئة بالفهود السوداء . أصبحت طفلة .
وبهذه الطفلة أحس بالخوف ، وفجأة ، أحس بالقلق على صحته .
وكأنه اكتشف أنه مخلوق ميت . وأنها يجب أن تكون ضامرة .
وفجأة . أحس بالخوف بشكل بشع . ومن جراء هذا الألم الذى
أصاب رأسها أحست أنها ستموت كأبيه . وأنها غير قادرة على
الحركة . فوضعت عصبة مبللة فوق عينيها . وأحست بأشمزاز
ينتابها أحيانا . تفكر فى أمها وأنها سوف تصرخ وتبكي من جراء
فكرة أنها لا تستطيع تغير من القدر . وأن عليها أن تجعل أمها
سعيدة قبل أن تموت . فهى مقتولة من كل هؤلاء الذين يريدون
بها شرا . وضع وجهها فوق وجهه وهى تنخرط فى دموعها .
أصابها جنون من الرغبة فى أن تبكى من الغضب .

ضمها إليه كمن يضم طفله . وكأنه يضم ابنته . وكأنه
يداعب جسدا صغيرا . ادارها نحوه . غطى وجهها وفمها وعينيها .
ومرة واحدة توسلت اليه . ولم تقل أبدا لماذا تتوسل . صرخ فيها
أن تسكت . ثم تعانقنا من جديد . وها هو العناق ينفك .
ويخضعانه في حالة من الدموع واليأس والسعادة .

التزما الصمت طيلة المساء . في السيارة السوداء التي أقلتها
الى البنسيون . وضعت رأسها فوق كتفه فأزاحها . حدثها أنه
من الأفضل أن تصل السفينة الفرنسية في أقرب وقت وأن تأخذها
ويفترقان . التزما الصمت فترة من الوقت . ثم سأل السائق أن
يمشي بطول النهر ، وأن يقوم بدوره . نامت منهكة الى جواره .
فأيقظها بقبلاته .

في البدء كان الضوء أزرق . وانبعثت رائحة البخور الذي
يشتمل دائما عند الغروب . كانت الريح ساكنة . ففتحت كافة
النوافذ باتساعها . لم تكن هناك نسمة هواء . خلعت حذائي
حتى لا أحدث ضجة . أعرف ان المراقبة لم ترفع عني بعد . وانه
من المقبول الآن أن أعود في الساعة التي أعددتها ليلا . سأذهب
توا لأرى ه . ل . (هيلين لاجونيل) وأنا أشعر بقليل من
القلق . وأرى الخوف الذي استبد بها في البنسيون أثناء النهار .
انها هناك تنام ملء جفونها . ه . ل . تنام عادة نوما عيبيا
وعدوانا مليئا بالرفض . فتحيط رأسها بذراعيها العاريتين . وترك
نفسها على سجيتها . فينام جسدها مثلما تفعل كل البنات . وقد
ثنيبت قدميها . لا يمكنك أن ترى من وجهها سوى أذنيها المتدليتين .
خمنت أنها تسمعني ثم تصنعت النوم . وانها مصابة بحالة من
العصبية والغضب . كان عليها ، أيضا ، أن تبكي . ثم تسقط
في الهاوية . أردت أن أوقظها . وان نتكلم معا بصوت خفيض .
فأنا لم أتكلم مع رجل شولن . ولم يتكلم معي . أنا في حاجة

لأن أسمع أسئلة هـ . ل . فليديها قدرة لا تقارن على الانتباه أكثر
من أناس لا يسمعون ما يقولونه . لكن ليس من السهل إيقافها .
لقد سبق أن أيقظتها ، وسط الليل ، مرة . ولم تستطع هـ . ل
أن تنام بعد ذلك . قامت . وأحست بالرغبة في الخروج .
وجعلتها تفعل . نزلت السلم . واتجهت نحو الدهليز والفناء
الواسع الخالي . ثم جرت . ونادتني . أحست بسعادة غامرة .
لا يمكن للمرء أن يفعل شيئاً ازاء هذا . وعندما اقترحت عليها
النزهة . عرفت أن هذا هو ما تنشده ترددت . لا . لن أوقظها .
وتحت الناموسية كانت الحرارة خائفة للغاية . وعندما أغلقتها
بدت غير محتملة بشكل حاد . أعرف أن سبب هذا هو أنني قادمة
لتوى من الخارج . من عند شاطئ النهر . كان الجو منعشاً طيلة
المساء . اعتدت على ذلك لم أتحرك . وأردد على مسامعي الأشياء
وهي تتحرك وتتحرك . لم أنم لتوى رغم كل المتاعب الجديدة التي
حلت بحياتي . فكرت في رجل شولن . لعله الآن في إحدى علب
الليل في ناحية عند مصب النهر . مع سائقه . لعلهما يشربان
معاً في صمت . شرباً مصنوعاً من كحول الأرز عندما يجلسان معاً .
أو لعله عاد إلى بيته . نام في حجرته المضيئة . دون أن يتكلم
كالعادة ، مع أحد . لم أحتمل التفكير ، في هذا المساء ، في رجل
شولن . ولم أحتمل هذا أيضاً من هـ . ل . يبدو أن لديهم
أوقاتهم التي يشغلونها . لقد جاءهم هذا من خسارح أنفسهم .
يبدو أنني لا أملك سوى هذا . قالت الأم : لن تكوني أبداً سعيدة
في شيء ، وأعتقد أن حياتي بدأت في الصعود بداخلي . أنني
مخلوق وحيد . وعلى أن أرتب نفسي . وأنتى لم أعد وحيدة منذ
أن اجتزت الطفولة . سأذهب لأكتب كتباً . ترأى لي كل هذا في
لحظة . في الصحراء الشاسعة التي بدأت في إطار ملامحها
أفسح حياتي .

لم أعرف كثيرا ماذا جاء من كلمات فى برقية سايجون . واذا كانت قد ذكرت ان أخى الصغير قد مات . أو اذا كانت قد قالت : « اذكروا الله . اذكر ، كما يبدو لى ، أنها » اذكروا الله » . لقد تجاوزنى الحدث ليس من المعقول ان ترسل لى برقية تخبرنى فيها أن أخى الأصغر مات . أولا لأن هذا شئ لا يمكن أن يحدث . ثم فجأة ، ومن أعماق كل مكان بالكون ، حل الألم ، وغطانى تماما . وركب فوق ظهري . ولم أدر بشئ حولى . ولم يعد هناك سوى الألم ، الذى لم أعرف مداه . فالأم التى تفقد طفلا قبل أن تلده ببضعة أشهر تحس بالألم . الآن أعتقد أن هذا ألم جديد . لقد مات طفلى عند ولادته ولم أعرفه قط . لم أشأ أبدا أن أقتل نفسى هناك مثلما أردت أن أفعل عندما سمعت نبأ وفاة أخى .

خدعنا هذا الخطأ ، لبضع لحظات . فغزا كل العالم . وحلت الكارثة من أعتاب السماء . فقد مات أخى الصغير . ولن تراه بعد ذلك . انساب الخلود فى جسد هذا الأخ الأصغر أثناء حياته ولم نره الا فى هذا الجسد الذى يسكنه الموت . مات جسد أخى ومات الخلود معه . وراح ناحية عالم آخر . مخصص لهذا الجسد الذى زاره . هذه الزيارة التى خدعنا بشكل حذرى . وغزا الخطأ كافة أرجاء الكون وسرت الكارثة .

مات أخى الأصغر بالضبط فى اللحظة التى مات فيها . فالموت أشبه بسلسلة بدأت حلقاتها منذ أن كان طفلا .

لم تحس بجسد الطفل الميت فى أى من هذه الحوادث التى كلّنت سببا فى هذا . الخلود الذى بلغه طوال سبعة وعشرين عاما من حياته . لم يعرف فيها اسمه .

لم يره أحد عن قرب مثلما رأيته . وفى اللحظة التى عرفت بذلك . وبكل بساطة . عرفت أن جسد أخى الصغير هو أيضا

جسدي ، كان يجب أن أموت . بل لقد مت فعلا . فأخى الصغير
يشبهني . وقد جرتى معه . فمت مثله .

يجب أن نحدث الناس حول هذه الأشياء . وان نعلمهم أن
الخلود شيء مميت وأنه يمكن أن يموت ، وان هذا يحدث . بل انه
يحدث . وشيء لا مثيل له أبدا . لا مثيل له أبدا . لا يوجد سوى
بعض التفاصيل حول الأساسيات . وأن أشخاصا ما يمكنهم ان
يتمهلوا الحاضر لدى هؤلاء الناس ، وفي نفس الظروف . انهم
يجهلون القوة الذاتية للخلود . ماذا يمكنهم بينما يعيش ، الخلود
نفسه . فالحياة أبدية . بينما هو على قيد الحياة . فالخلود ليس
سوى مسألة زيادة في العمر أو نقصانه . أو ليس هذا من أمر
الخلود . بل هذه مسألة أخرى تظل مجهولة . يجب أن تقول انها
بلا بداية أو نهاية . فقط عليها أن تبدأ . كالروح التي تدفعها
الريح . انظر الى الرمال الميتة في الصحراء . وأجساد الأطفال
الميتين . ولا يمر الخلود أبدا من هناك . بل يتوقف . ويرجع
القهقري .

كان أخى الأصغر مبتهجا دوما . يعيش خلودا بلا خطايا .
وبلا أساطير وبلا أحداث . نقيًا ليس له سوى منفذ واحد . لم يكن
لدى أخى الأصغر شيء يصرخ به في الصحراء . لم يكن لديه
ما يقوله ، هنا أو هناك . لا شيء . لم يتلق أى قسط من التعليم .
ولم يستطع ان يتلقى سوى أساسيات التعليم . لم يكن يجيد سوى
الكلام بعض من القراءة والكتابة . كان يؤمن ، أحيانا ، أنه لم يجرب
المعاناة . وأنه شخص لا يفهم . ومصاب بالخوف .

هذا الحب الأحمق الذي أكنه له ، ظل بالنسبة لي متعذرا
وغامضا . لم أكن أعرف أبدا لماذا أحببته الى هذا الحد ، أردت أن
أقتل موته . انفصلت عنه قبل سبعة عشر عاما . لم أكن أفكر فيه

الا لماذا . . أحببته بدورى بشكل دائم . فلم يعد هناك شىء آخر
يمكنه أن يظال هذا الحب . . ونسيت الموت .

قليلًا ما نتكلم معا . وقليلًا ما نتكلم عن الأخ الأكبر . عن
تعاستنا ، ومأساة أمى . وشرودها . نتكلم عن الصيد ، وعن
البنادق ، والميكانيكا ، والسيارات . ويغضب عندما تتحطم
السيارة . ويحكى لى . وحدثنى عن السيارات الرديئة التى امتلكها
فيما بعد . عرفت كل ماركات بنادق الصيد . والسيارات القديمة .
تكلمنا أيضا ، وبكل تأكيد عن صيد النمر التى تقع فى الكمين
المنصوب لها دوما . اذ لم تستمر فى السباحة مع التيار . أما أخى
الأكبر فكان يكبرنى بعامين .

توقفت الزياح . وتحت الأشجار كانت الأضواء السفلى تنبثق
مع المطر . وتصطح العصافير من أعماقها وهى تنقر الهواء البارد
بمناقيرها . وتجعله يندق فى كل اتجاه تصدح بطريقة مليئة
بالاصرار .

انزلت العبارة فوق نهر سايجون . وتوقفت المحركات .
وجروها بجرارات . حتى مراسى الميناء الموجودة فى جداول نهر
الميكونج التى فى أطراف سايجون . يسمى هذا الجدول ، وهذا الفرع
من الميكونج بالنهر . رست العبارة طوال ثمانية أيام . فى نفس
المكان الذى ترسو فيه السفن . حطت السفينة « فرنسا » هناك .
يمكنك أن تقابل النساء فى السفينة « فرنسا » . وان ترقص معهن
فالسفينة غالية بالنسبة لأمى . فهى لا تستطيع على مصروفاتها .
ولكن معه ، عاشق شولن ، كان يمكننا أن نذهب الى هناك . لم
يكن يخیل الى ذلك لأنه يخاف ان يراه أحد مع الفتاة البيضاء
صغيرة السن . لم يقل هذا لكنها كانت تعرف . فى هذه الآونة ،
لم يكن هذا أمرا بعيد المنال . فقبل خمسين عاما لم تكن السفن

تبحر الى كل مكان فى العالم . كانت هناك رحلات كثيرة تقوم بين القارات عبر الطرق البحرية . لم تكن هناك سكك حديدية . فوق مئات وآلاف الكيلو مترات من الأمتار السريعة . لم يكن يوجد سوى الطرق البدائية . والعبارات التى تنقل البعثات البحرية والفرسان مثل بورنوس ود ارتنيان وارانيس الذين يربطون الهند الصينية بفرنسا .

استغرقت هذه الرحلة أربعة وعشرين يوما . وكانت العبارة تسير فى مدن بها شوارع وأحياء ومقاه ومكتبات وقاعات ، ومكتبيات ، وعشاق ، وسرايات ، وأموات ومجتمعات تتشكل بالمصادفة والجبر . كنا نعرف ذلك . ولا ننسأه أبدا . علينا أن نفعل ما يجعل الحياة قابلة لأن نعيشها . ولا ننساها . هناك رحلات مخصصة للنساء . حيث توجد الكثيرات منهن بصفة خاصة . ولكن بالنسبة لبعض الرجال أحيانا . كان السفر بدافع يجعل الذهاب للمستعمرة مغامرة حقيقية . أما بالنسبة لأمى . فقد كان السفر دائما أثناء طفولتنا المبكرة « أجمل أشياء الحياة » .

الرحيل ، هو دائما الرحيل . كانت أول رحلة لها فوق البحار . تبتعد فيها عن الأرض . الرحيل بسبب الألم دائما . وأيضا اليأس . لكن هذا لم يمنع الرجال من الرحيل . وكذلك اليهود . ورجال الفكر والمسافرون لرحلة واحدة فوق البحر . لم يمنع هذا الكثير من النساء أن يقمن برحلة . هؤلاء اللاتى لم يرحلن أبدا . طلبن البقاء فى الوطن الأم . حيث الأهل والخيرات . والأسباب الدافعة للعودة . وطوال قرون والمراكب تقوم بالرحلات ببطء شديد . أكثر مأساوية مما هى عليه فى أيامنا . فقد كان وقت الرحيل يستغرق مسافات طويلة بطريقة طبيعية . اعتدنا على هذا الايقاع الآدمى البطيء على الأرض وفوق البحر . وقد سبب هذا الايقاع أن يقوم الانسان بانتظار الريح ، والبرق ، والرعد ،

والشمس ، والموت . والعبارة التي عرفت الفتاة البيضاء الصغيرة
كانت هناك في آخر دورات العالم . حدث هذا أثناء شبابه .
وفيما بعد دشنت أول خطوط الطيران وأصبحت ، بالتتابع ،
مخصصة للبشر بالسفر عبر البحار .

كنا نذهب يوميا الى شقيقته في شولن . ويفعل كالعادة .
يتصرف كعادته طيلة أوقاتنا ، ثم يقوم بغسلي بمياه البحر ويحملني
فوق السرير . . . ويأتي على دقيرة مني . ويتمدد . لكنه بلا حول
أو قوة . لقد تم تحديده موعد الرحيل الذي كان بالنسبة لي ، فيما
قبل . بعيدا . لم يكن يستطيع ان يفعل شيئا بجسدي . حدث هذا
بشكل تشع . تحت بصره وسمعه . لم يكن يرغب بجسده . لم
يردني أن أرحل . خانه التوفيق . قال : لا أستطيع أن أضحك .
اعتقد أنني أستطيع أن أفعل . قد لا أتمكن الآن . أخبرني أنه مات .
وارتسمت على شفتيه ابتسامة اعتذار بالغة الرقة . قال ان هذا ربما
لا يتكرر أبدا . سألته ان كان يريد هذا فضحك وقال : لا أعرف .
لعله تمت « نعم » ظلت رقبته باقية تتمثل في أعماق الألم . لم يتكلم
عن هذا الألم . لم ينطق بكلمة . يرتعد وجهه . أغلق عينيه
واصططت أسنانه . ظل ساكنا خلف الخيالات التي يراها بعينيها
المغلقتين . قال انه يحب هذا الألم . يحبه مثلما يحبني . بقوة
شديدة ربما حتى الموت . بل انه يفضلني عني . قال ، في هذه
المرّة . انه يريد أن يداعبني لأنه يعرف أن لدى رغبة في ذلك وأنه
يريد أن ينظر الى عندما تتولد الرغبة . وفعل ذلك . نظر الى ،
في تلك اللحظة ، وناداني كأنني طفلة . ثم قرر الا نلتقي ثانية .
لم يكن هذا ممكنا . بل مستحيلا . فنحن نلتقي كل مساء أمام
المدرسة في سيارته السوداء رأيت رأسه خجلا .

عندما حانت ساعة الرحيل . أطلقت السفينة ثلاث صفارات
من نفيرها . صفارات طويلة ومرعبة . انتشرت في كافة أنحاء

المدينة : انطلقت ناحية باب السبى التى تحشاها السود . اقترى
عمال السحب من السفينة وجروها ناحية الطريق الرئيسى للنهر .
ثم قام العمل باطلاق العنان للأحبال . لم يكن هناك شخص يفكر
فيها . تحركت السفينة ببطء شديد . واندفعت فى طريقها بتأثير
قوتها الذاتية فى النهر . وأينما هيكلا يتقدم ناحية البحر ،
وتباطأت الصفارات شيئا فشيئا وأخضبت النساء المناديل
والإشارات . وأخيرا بدت الأرض من فوق السفينة كأنها فى
منفاها . وفى وسط النهار رأيناها وهى تختفى ببطء .

حدث هذا عندما أطلقت السفينة وداعها الأول . بعد أن تم
رفع الھلب وبدأ عمال السحب فى اطلاق سراحها وابعادها عن
الأرض . فبكى . فعلت ذلك دون أن تكشف عن دموعها . لأنه
كان صينيا ، ويجب الا تبكى هذا النوع من العشاق دون أن تكشف
لأمها ولأخيها الصغير أنها تكاد أن تفعل ذلك ، ودون أن تكشف
دا بخباياها . وكان هذه هى العادة فيما بينهما . وقفت السيارة
السوداء الطويلة هناك . وفى المقعدة يجلس السائق بملايسه
البيضاء . كانت السيارة على وشك أن تبعد عن المدينة . وعن
سيارات البعثات البحرية المعزولة . عرفته بهذه العلامات . يجلس
فى الخلف . هذا الأمر يصعب نسيانه . لا يتحرك وهو يجلس
فى مقصورته . استندت على سور السفينة مثلما فعلت فى المرة
الأولى فوق العبارة . تعرف أنه يتطلع اليها . نظرت اليه عن بعد .
لم تره . ثانية لكنها ظلت تنظر ناحية هيكل السيارة السوداء . ثم
لم تستطع رؤيته . لم تعد تراه واختفى الميناء . ثم الأرض .

عبرت بحر الصين ، ثم البحر الأحمر . والمحيط الهندى .
وقناة السويس . تستيقظ فى الصباح . وترتجف من الهجران .
تتقدم السفينة فى طريقها . فى هذا المحيط الكبير . البالغ
الاتساع . الذى يضل الى القطب الجنوبى . المسافة طويلة بين

الموانئ بين سيلان والصومال . كان المحيط أحيانا أكثر هدوءا .
وأحيانا أكثر نقاء وأحيانا أشد رقة . كنا نحس أحيانا أننا في
رحلة عبر البحر . وتفتح كل السفن . والصالونات . وممرات
السفن . والنوافذ . ويهرب العابرون من حرارة الجو في
مقصوراتهم . وينامون فوق سطح المركب .

وخلال رحلة الشتر : وأثناء عبور المحيط ، وفي وقت متأخر
من الليل يموت شخص ما ، لم تكن تعرف الخبر إلا فيما بعد .
سواء أثناء هذا السفر أو في سفن آخر . هناك ناس يلعبون
الكوتشين في بار الطلائع . ومن بين هؤلاء اللاعبين يوجد شاب ،
وفي لحظة من اللحظات ، ودون أن يتكلم . يخسر الشاب كل
أوراقه . فيخرج من البار . ويعبر سطح السفينة جاريا . ثم يرمى
بنفسه في المحيط . ولا تتوقف السفينة التي تسير بأقصى سرعتها .
ويضع جسد الشاب . لم تكن نعرفه لعله من السفينة . أو من
مكان آخر . سمعت الحكاية تتردد . قيل انه من سبادك . ابن محافظ
سبادك . لقد عرقته . كان أيضا في مدرسة سايخون . تذكرته
جيدا . وجهه الأسمر البالغ الرقة . وعوينتيه الصغيرتين . لا شيء
آخر لم يعثر على أي رسالة في مقصورته . وظل الأمر ماثلا في
الذاكرة . نفس السن . سبعة عشر عاما . عادت السفينة الرحيل
في الفجر . يا له من فجر مرعب . وحين أشرقت الشمس بدا البحر
خاويا .

وفي مرة أخرى . وخلال نفس الرحلة وأثناء عبور نفس
المحيط . وفي بداية الليل . وفوق سطح السفينة عزف فالس
شوبان الذي لا تحفظه جيدا . حاولت أن تتعلمه طوال أشهر . لم
تتمكن أبدا من عزفه بشكل مباشر . فعلت أمها ذلك عندما أجبرتها
على ترك البيانو . في هذه الليلة التي ضاعت بين الليالي ، كان
هناك شيء أكيد . فقد وقفت الفتاة فوق سطح السفينة . ثم بدلت

عزف موسيقى شوبان تحت سماء تومض بالبريق لم تهب نسمة
رياح واحدة . انتشرت الموسيقى فى كل مكان من العبارة السوداء .
كانها أصحاء السماء الذى لا نعرف كيف تتعامل معها كأنها ثروتها .
تجهل فحواها . تتحرك الفتاة الصغيرة كأنها تنوى ان تقتل نفسها .
وان تلقى بنفسها فوق البحر . ثم تبكى لأنها فكرت فى رجل
شولن . لم تكن واثقة أنها ستجبه كل هذا الحب حب لم تعرفه
لأنها ضاعت فى خبايا التاريخ . مثل المياه فى الرمل . لقد استعادته
الآن عندما انبعثت الموسيقى التى انزاحت ناحية البحر .

وبعد قليل من الزمن ، عبر أخوها الخلود من درب الموت .

ينام الناس من حولها على أنغام الموسيقى . لكنهم لا يستيقظون
عليها ، هادئين . فكرت الفتاة أنها جاءت هنا كي ترى الليل ،
أكثر هدوءا . انه قادم دوما من المحيط الهندى . تخيلت أنها فى
أثناء هذه الليلة رأت أخاها الأصغر فوق سطح السفينة مع امرأة .
استندت الى سور السفينة . ودققت النظر . كانا يتبادلان القبلات .
انحنى الفتاة كي ترى بشكل أفضل . عرفت المرأة التى كانت مع
أخيها الأصغر . لا يزالان متعانقين . انها امرأة متزوجة . وقد
سبق لها أن ترملت مرتين . تظاهر الزوج أنه لا يعرف شيئا . وفي أثناء
الأيام الأخيرة من رحلة الأخ الأصغر . ظلت هذه المرأة طيلة النهار
فى مقصورته . لم يخرجها الا فى المساء . وطوال تلك الأيام ظل
الأخ الأصغر ينظر الى أمه وأخته دون أن يعرفهما بما يحدث .
أصبحت الأم نافرة . . صامتة ، وغيورة . أما الصغيرة فكانت تبكى .
لعلها كانت سعيدة ، فى هذه الآونة ، كانت خائفة مما سيحدث
فيما بعد لأخيها الأصغر . اعتقدت أنه سيتركهما . وأنه سيرحل
مع هذه المرأة . ولكن أبدا . فقد لحق بهما عقب وصوله الى فرنسا .

لم تعرف الفتاة الصغيرة ، كم مر من الوقت بعد هذا الرحيل ، وكيف تم تنفيذ أمر الأب . فاستطاع أن ينفذ الزواج الى أمر به . الذى عقده مع الفتاة التى اختارتها العائلة منذ عشر سنوات . فتاة مليئة بالذهب ، الذهب والزبرجد ، صينية قادمة من الشمال . من مدينة فوشون . جاءت فى صحبة أسرتها .

مر وقت طويل ، لم تستطع أن تفعل له شيئاً . لم تتمكن أن تلد له من يرث ثروته . ظلت ذكريات الفتاة البيضاء هناك ، راقلة ، بجسدها ، فوق السرير ، كان يجب ان تظل هناك مدة طويلة . كانت الرغبة هى السبب لتدفق كل هذه المشاعر ولرقتها المتناهية . والشهوانية المرعبة معتمة الأغوار . ثم جاء اليوم الذى أصبح فيه كل شئ ممكناً . حسب رغبة الفتاة البيضاء الصغيرة وان تكون هكذا . اصابة التردد لدرجة يمكنه بها ان يتخيل صورة حبيبته كاملة حين تنتابه الرغبة بقوة وهو صورة الطفلة البيضاء يخترق المرأة الأخرى حتى تكتمل الرغبة التى يبدىها نحوها . كان عليه ان يستعيد صورة الطفلة البيضاء بأكذوبة من داخل هذه المرأة . فبالكذب يفعل ما تراه العائلات ، والسماء ، حلالا . حيث ينتظر منه اصهاره فى الشمال ان يعرف حق الميراث . وان يخلد اسمهم .

لعلها عرفت حكاية الفتاة البيضاء الصغيرة . فلديها خادعات من سادك يعرفن الحكاية وعليهن أن يتكلمن . ولا يجب ان تتجاهل معانيتها . كانت كلتاهما فى نفس السن ، ستة عشر عاما . ترى هل رأت زوجها يبكى فى ليلة عرسهما ؟ وهل كان ذلك سببا للتسرية عنه ؟ فتاة صغيرة فى السادسة عشرة وخطيبها الصينى فى الثلاثين . أليس من اللياقة والأدب أن تواسيه فى هذه المعاناة الناضجة التى يعيشها ؟ من يعرف ، ربما انها مخدوعة ، لعلها

تبكى معه • عليها تتكلم طيلة الليل • ثم جاء الحب بعد ذلك •
بعد البكاء •

لم تعرف الفتاة البيضاء الصغيرة تفاصيل أى من هذه الأحداث •

وبعد سنوات من الحرب ، ومن الزيجات ، والأطفال ،
والطلاق ، والكتب جاء الى باريس مع زوجته • وخايرها بالهاتف •
هأنذا • عرفت من صوته • قال : أريد فقط ان أسمع صوتك •
قالت : انه أنا • صباح الخير • بدا جريبا ولكنه لا يزال خائفا
كسابق عهده • ارتعد صوته فجأة • ووسط هذه الارتجافات ،
سمعت ببرته الصينية • يعرف أنها بدأت فى تأليف الكتب
عرف ذلك من أمها التى قابلها فى سنايجون • وأيضا من أخيها
الصغير ، الذى كان غزينا من أجلها • لم يعرف ماذا يقول • لكنه
تمتم قائلا مثل سابق عهدهما أنه لا يزال يحبها • وأنه لا يمكنه
أن يكف عن حبها وسوف يحبها حتى آخر حياته •

مرجريت دوراس

نوبل لوشاتو - باريس

فبرايز - مايو ١٩٨٤

صدر من هذه السلسلة

- ١ - الطبق الطائر
- ٢ - فى مهب الريح
- ٣ - عود الورد الأسباني
- ٤ - قطار فى الجليل
- ٥ - تل العشاق
- ٦ - من قتل مولير
- ٧ - حياة الغاب
- ٨ - وداعا مستر تشيبس
- ٩ - شحاذون ومعتزون
- ١٠ - ليلة القدر
- ١١ - النسر
- ١٢ - نقرتيتى وحلم اخناتون
- ١٣ - الكلاب
- ١٤ - غابة الفرع
- ١٥ - العلو الأول
- ١٦ - سيدة تدعى ديانا
- ١٧ - الملائكة الأبرياء
- ١٨ - كش ملك
- ١٩ - الحى الضائع
- ٢٠ - العاشق

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠/٤٥٧٨

ISBN — 977 — 01 — 2449 — 4

العاشق رواية تنتمى إلى تيار الرواية الجديدة التى
ظهرت فى فرنسا وقادتها مجموعة من بينهم مؤلفة هذه
الرواية « مارجريت دوراس » وقد فازت الرواية بجائزة
« الجونكور » عام ١٩٨٤ .

« والعاشق » رواية من ذلك النوع الذى ينتمى إلى التجارب
الذاتية لمؤلفيها وهى تجربة عاشتها الكاتبة مع أسرتها فى
الهند الصينية خلال الحرب الفيتنامية بما ضمت من أحداث
ومواقف إنسانية جديرة بالتأمل .

